مولود عاشور

آخر موسم للعنب

ترجمة : أحمد منور





مولود عاشور

آخر موسم للحب

ترجمة : أحمد منور

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
الجزائر

رقم النشر 81/1010
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
الجزائر 1981

الفصـــل الاول

«متخلفون أيضا» همهم مجيد ، بعد أن ولج باب مكتبه وألقى نظرة فيما حوله . لم يكن هناك أحد من الموظفين الثلاثة الذين يعملون تحت إمرته .

لقد أصبح التأخر عادة لديهم ، بالرغم من التنبيهات المتكررة التي وجهها لهم . كانوا ثلاثتهم ، وكأنهم على اتفاق لا يضيعون أية فرصة للطعن في كفاءته كرئيس مصلحة ، وذلك لأنهم لم يستطيعوا أبدا أن يحرزوا على التقدم الذي أحرز عليه . كان في بداياته في هذه المصلحة مماثلا لهم ، بل كان أحيانا يزيد من عذابهم ، لأنه لم يكن متعودا على أي نوع من التحارير بينما كانوا هم متمرسين بالعمل المكتبي المتكرر .

ولكن منذ ثلاث سنوات مضت تقريبا ، عمل مجيد بجهد . وأعد لإحدى المسابقات وتابع دورة تكوينية ، فغادر الجماعة التي بقيت على حالها ، ليصبح عند عودته رئيسا لها ، بعد أربعة

شهور من ذلك ، وفكر في نفسه «ينبغي أن لا أخاطبهم كزملاء بعد اليوم ولن أهتم ، إذا لزم الأمر أن أتخذ ضدهم عقوبات» .

ومضى فعلق معطفه على مزلاج احدى النوافذ ثم اتجه الى مقعده خلف مكتب معدني مثقل بالملفات .

ودخلوا الواحد بعد الآخر ، تفصلهم بعض الدقائق عن بعضهم . ورفع آخر القادمين عقيرته بلهجة ساخرة .

ـ تحياتي أيها العامل المبكر ، لا تعاتبني على التأخر خصوصا تأخري في أروقة المبنى ، فذلك هو الذي أتاح لي أن أحمل إليك نبأ سارا .

وعندما رفع مجيد رأسه ، واصل بنفس اللهجة :

... أو نبأ سيئا ، على حسب ، ... لأن مع (بولحية) لا نستطيع ان نجزم . اذهب لمقابلته ، فهو يريدك لأن ساعيه عمار ، ذلك الكسول ، متعب بعد أشد التعب من أجل أن يأتي بنفسه فيبلغك الخبر .

ـ هذا جميل ، إنها ترقية جديدة لك ، علق عليان ، دون أن يرفع جبهته عن الزجاج المطل على موقف السيارات التابع للعمالة . فهو لا يشرع في عمله إلا بعد أن يمضي ربع ساعة في التفرج على مجيء بعض الراقنات الصغيرات المتأخرات عن العمل .

لم ينتبه مجيد الى تلميح عليان المر ، ونظر بصرامة الى حامل الخبر :

ـ إن كان هذا من أجل أن تنسوني تأخركم ، فاعلموا أنني لست مغفلا . انكم تضطرونني جميعا أن أعتبركم كمرؤوسين بسطاء ، وأن أراجع رئيس المستخدمين بشأنكم .

ـ طيب ، طيب ، لا تغضب فقط ، ولكن صحيح ، عمار يطلب منك ان تذهب حالا عند «المعلم» . لا تنتظر الاجتماع فهذا استدعاء شخصي ، اما بخصوص الإبلاغ عن تأخرنا ، فانت تعلم جيدا انك لن تفعل ابدا ، فقد اكلنا كثيرا من الخبز الأسود سويا .

* * *

كان صباح الاربعاء هو موعد جلسة العمل المعتادة التي لا ينبغي لأي رئيس مصلحة أن يتغيب عنها ، خشية أن يناله عقاب أشد مما يمكن أن يتوقع . فالمدير لا يتسامح بشأنها ، ولتأخرهم بعض الدقائق دفع البعض ثمنها غاليا ، ومن غير السار أن يلاحظ المرء في آخر الشهر نقصا صغيرا في أجرة حكم عليها مقدما بأنها هزيلة جدا . حين كان يقطع الرواق الطويل المؤدي الى «عرين الأسد» تساءل مجيد خلف عن دواعي هذا الاستدعاء فلحد الآن لم يخطر بباله إلا مجرد انطباع ، فاذا طرح من حسابه انه ينتظر منذ ثلاثة شهور تسوية وضعيته الإدارية ، فهناك اعتبار أن المدير لا يكلف نفسه مشقة استدعاء رؤساء المصالح بصفة شخصية للاجتماع ، والتقى بالساعي الذي جاء ليؤكد عليه .

قال عمار :

ـ أسرع ، إنه لا يحب الانتظار .

كان السؤال ما يزال يشغل بال مجيد ، حين جاءته من داخل الغرفة كلمة (ادخل) رنانة ، ردا في ذات الوقت على ضرباته الخفيفة الثلاث ، التي نقرها على الباب .

أجال بصره في هذه القاعة المفروشة بالموكيت الأخضر ، وكان يبدو عليه دائما وكأنه يكتشف ما كان يعرفه منذ ما يقرب من ثلاث سنوات . وكانت طاولة الاجتماعات المغطاة بالوبر الأخضر مهيأة ، وأمام كل كرسي من كراسيها الستة الشاغرة حاليا ، وضعت رزيمة من الورق الأبيض ، وفي وسط الطاولة تنتصب كومة من الملفات .

وفي أقصى القاعة ، في الركن المواجه للمدخل ، كان سي والي الرهيب ، يتربع على عرشه ، خلف مكتب فخم من الخشب المنحوت ، إنه الرئيس الأعلى الذي يبسط سلطانه على هذا الطابق من بناية (العمالة) (1) ومقر الإدارة العمالية للفلاحة .

كان المكتب مكتضا بأكداس من الملفات ، ومن الخرائط الملفوفة ، ومن أوراق مختلفة غامضة المحتوى ، تشكل عناصر هامة ... في العالم المفضل لهذا الرجل ، الناضج السن ـ في توجيه القطاع الفلاحي المسير ذاتيا ، في كامل العمالة ، والذي يترأسه في جملة ما يترأس . يتخلص وجهه في لحية كثة تكتنفها

---

(1) الولاية حاليا

حمرة داكنة ، تعلوه نظارة مذهبة الإطار ، تغطي حاجبيه ونصف جبهته ، والأنف بالذات ناتيء بارز التقاطيع ، وكأنه يسند منبت الشعر الغزير المنحدر من الخدين الى قاعدة الذقن مرورا بالشارب .

كان يلبس نفس البدلة الزرقاء الداكنة ، وفوق ياقة قميصه الأبيض المنكمش كالعادة ، كان رباط عنقه معقودا بطريقة (إلى الشيطان) .

كان يقال عنه في أوساط المستخدمين «لقد سحقته الشهادات العلمية ، واشتغاله المفرط بالسياسة» . ولكن مجيد كان يدرك بالفطرة أن هذا المظهر المهمل ، والاحتقار الكامل للأناقة كثيرا ما كانت علامات خادعة للعين .

كان الرجل على درجة عالية من الذكاء ، وكان نضجه السياسي ، ووعيه بالمسؤولية يبرزان في أدنى قراراته ، وكل ما كان مجيد يعتب فيه عليه ـ ودون أن يفصح له أبدا عن ذلك ـ هو ببساطة جهله الكامل بما يمت إلى عمل الأرض بصلة ، ما عدا ما فوق الورق .

نظر إليه المدير وهو يقطع القاعة في اتجاهه دون أن يتخلى عن هيئته اللامبالية بدا عليه وكأنه لم يره بالفعل الا حين صار قريبا منه ، وعندها أشار إليه بالجلوس .

وغاص مجيد في احدى الأرائك السوداء ، ذات الجلد البالي ، وشعر فجأة بأنه صغير وضعيف وأعزل ، ودون مستوى هذا الرجل بكثير ، هذا الذي لا يبدو إلا أكثر عظمة وأكثر منعة ،

وسيادة . هل هو شرك قصد عمدا لمضاعفة الشعور بالنقص لدى المرؤوسين الذين يأتون للمطالبة بحق من الحقوق ؟ كان يشعر بعدم الارتياح ، نفس الشعور الذي أحس به ذات يوم بعد استجواب صعب أجراه معه نفس هذا الرجل ، حيث عين بعد ذلك في عمله .

الكل يعلم هناك أن لسي والي سلطات واسعة جدا ، ومجرد تعليمة منه تغدق على الشخص نعم السيدة الادارة او تسحقه تحت وطأة المرؤوسية المهينة ، إلا أنه لم يكن ظالما وهذا رأي الجميع فيه .

وفكر مجيد وقد ضجر من صمته ، دون أن يجروء على قطع ذلك الصمت «لا يمكن أن يكون قد تجاوز الخامسة والثلاثين ، نفس عمري ، ومع ذلك فهو يخجلني» وانتهى بأن عزا ذلك الى اللحية والصلع المبكر ، والى العينين الغامضتين ، والى الوجه الذي خلا من أدنى أثر لانعكاس المشاعر .

قبل ثلاث سنوات أدخل مجيد في الخدمة ، وعين في الحين في وظيفة صغيرة تتناسب مع مستواه الدراسي المنخفض جدا ، لم تأتي طلباته السابقة ، المشفوعة بالرجاء ، بأية فائدة ، فكان عليه أن يدعم طلبه المحرر بشكل سيء بالتدخل المباشر ـ والذي كان حاسما ـ لأحد رفاقه القدامى في السلاح ، الذي سرح مثله من الجيش ، وهو يمتلك الآن تجارة هامة في المدينة .

هذا بالرغم من اله كان يمتلك معرفة عملية عميقة بالزراعة . فالزراعة نصيب الريفيين ، وكان مجيد قد حصل على خبرة متينة

فيها ، ويبدو أن المدير حينذاك قد وضعها في الاعتبار ، حيث راح يدون في ملفه ملاحظات كلما راح مجيد يجيب عن أسئلته .

ـ «ايوه سي خلف» .

واهتز مجيد في مكانه . انتشل من ذهوله ، ونظر الى سي والي . لمح بصفة غير واضحة العينين اليقظتين بشكل مذهل من وراء الزجاج الملون للنظارة التي لم يسبق ل (بولحية) أبدا أن نزعها في حضور الناس .

. بدا لعدة ثوان وكأنه معلق من شفتيه ، ما عساه أن يخرج من بينهما ، كان المسؤول كأنه يبحث في ذهنه عن عبارة مقبولة للشروع في حديث مزعج . وسقط سؤاله أخيرا مرتخيا :

ـ أتحب عملك الذي تؤديه هنا ؟

وكأنَّ مجيد أخذ بالسؤال ، أولم يكن يتوقعه فأخذ بدوره يبحث عن جواب ، لا يكون مجرد تعبير عن الرضى ، فحدد له :

ـ أريد أن أقول : هل وظيفتك في المكتب لا تمثل إلا وسيلة لكسب العيش ، أم أنت مقتنع بأنك تؤدي عملا مفيدا ؟

ـ أظن أننا جميعا هنا نؤدي عملا مفيدا . وبعد لحظة صمت أضاف : وبالنسبة إلي فإن عملي يهمني كثيرا ، ولك أنت أن تحكم فيما إذا كنت أؤديه بصفة مرضية .

ـ القضية ليس هنا . قالها المسؤول منتقلا فجأة من الحديث بالفرنسية إلى العربية . لقد طلبت منك هذا لأن لدي مهمة أريد أن أكلفك بها . إنك لم تخلق للعمل المكتبي ، حتى وان كنت

تؤديه على الوجه الأكمل ، فهناك أعمال أخرى كثيرة كما لا يخفي عليك ، وأنت تعرفها جيدا ، وعلى اطلاع على القضايا التي تقدم إلينا يوميا لكي نجد لها حلا .

- اعلم يا سي والي أن العمل مهما كان نوعه لا يخيفني ، إلا أن هناك بعض الصعوبات ... ولم يجد مجيد على لسانه كلمة (صعوبات) بالعربية فتوقف ، لكن ليس لهذا السبب فقط ، فقد أدرك أنه تجاوز الى اختصاص رئيسه ، فليس من مهمته أن يقدم عرض حال لمشاكل متعددة يعرفها الآخر حق المعرفة .

- يا خلف . إنني أخرت عن قصد جلسة العمل لأن لدي مسألة أريد أن أطلعك عليها أولا . خذ ، وانظر النقطة /109/ ، ثم اسحب من الإضبارة الملف المتعلق بها . ومدَّله سي والي بخريطة بمقياس $\frac{1}{50000}$ اختارها من بين تلك الخرائط التي كان يزدحم بها مكتبه . وأخذ بعد ذلك وقتا في إشعال سيجارة ، بعدأن دقها وقتا طويلا ، ضاربا طرفها على ولاّعته المذهبة ، مما أعطى وقتا كافيا لجعل مجيد يفقد صبره ولكن هذا الأخير قام مدفوعا بحب الاطلاع يفتش في الاضبارة المعدنية ، وسحب بعد لحظة ملفا كرتونيا كبير الحجم .

- انه ملف نعرفه جيدا يا سي والي ، وأخرجناه العديد من المرات ، اذ أن هذه المزرعة تثير لنا من المشاكل ، بقدر ما تثيره لنا عشرة من أمثالها مجتمعة .

ـ في الحقيقة ، كل المزارع تثير لنا المشاكل ، ونحن هنا بالضبط من أجل تسوية هذا النوع من المشاكل . ألا ترى يا خلف ، ان التعليمة التي تلقيتها منذ أقل من أسبوع هي في الواقع بمثابة إنذار نهائي . إن هناك انحرافات مفرطة في تسيير بعض المزارع ولا يوجد هناك ألف طريقة لمعالجتها... ومهما يكن من أمر فإننا ، أمام اختيارين : فإما أن نصل إلى إصلاح للوضعية في أقرب الآجال ، ونبرهن بذلك على نجاح نظام التسيير ، وإما أن تستمر الأمور في التدهور ، ولن يبق لدينا حينئذ إلا أن نعلن خيانتنا للعهد ، ونسلم الأرض إلى الملاكين الذين يهمهم الأمر ، والذين لن يفعلوا أكثر من جزأرة النظام الاستغلالي ، ذلك النظام الذي لم يوضع له حد إلا بفضل الكفاح الطويل . وهذا الحل الأخير غير وارد ، وكلنا طبعا متفقون على ذلك .

وهز مجيد رأسه ، إنه يعرف أكثر من أي كان ماذا تعني كلمة (استغلال) بقدر ما يعرف أيضا وعلى الوجه الأكمل قطاع التسيير الذاتي ونقائص تطبيقه .

كان صوت سي والي هادئا ، وأحادى النغمة تقريبا ، كان يتحدث بلا انفعال ، بهيئة من يقرر وضعية عادية ، ولكن مجيد كان يعرف أن هذا الهدوء يخفي وراءه انشغالا له ما يبرر وجوده .

لئن كان هناك عدد كبير من الناس يعيشون بفضل المزارع المسيرة ذاتيا ، فان هناك الكثير منهم يعشيون عالة عليها . هناك مسؤولون بالذات لا يتورعون في خرق القوانين ، وفي تنصيب أنفسهم

أسيادا مسيطرين على أراض كلفوا بتسييرها ، بينما كان الرأي العام وللمرات العديدة ، يصدر حكمه على التسيير الذاتي من خلال توقيف بعض المسيرين الناقصي الذمة .

ـ حينما يصبح المسؤولون المنتخبون أو المعينون يتصرفون وكأن المزارع ملك لهم ، فانه حينذاك سيحصل تطور بالتأكيد ، لأن همهم الأساسي سيكون استثمار الأرض التي عهد بها إليهم ، عوض إتلافها بصورة وقحة ، أو ترك الآخرين يفعلون ذلك .

ـ انك تنسى شيئا واحدا يا سي والي : الإخلاص ، اذ أنه لا بد للمسير أيضا أن يصرف أمور المزرعة وكأنها أموره الخاصة ، وأن يكون في نفس الوقت نزيها ، حتى لا يجعل الآخرين يعتقدون أنها حقا أموره الخاصة .

قام سي والي من وراء مكتبه ، والتف حوله ليجلس على الأريكة الأخرى بجانب مجيد ، حيث أصبحا الآن في مستوى واحد .

ـ أعتقد أن لديك فكرة واضحة عن الحالة ، وأنه من غير المفيد أن أوجز لك الأدواء التي تعاني منها المزرعة رقم /5/ . وعلى أية حال ، فإننا لا نستطيع أن نحل مشاكل بهذا القدر انطلاقا من ملف إداري .

أجاب مجيد :

ـ ولكني كنت أعتقد أن هذه القضية قد سويت ، فقد عين مدير جديد للمزرعة منذ أقل من ثلاثة أشهر .

- نُحِّيَ من مهامه منذ أيام بناء على شكوى من مجلس العمال ، والمزرعة رقم /5/ هي اليوم بدون مدير .

وتمتم مجيد وقد فاجأه الخبر ، انني أعرف سالم شخصيا . إنه كان مؤهلا أفضل من أي كان للقيام بهذا النوع من العمل .

- لقد تركت نفسي أنا أيضا أنساق مع وعوده . ولكن سالم كان عاجزا كالآخرين ، فأي انسان بالنسبة الي يبوء بالفشل ، هو بالضرورة عاجز . لهذا قررت أن أقوم بتجربة ، إذ لا بد من اتخاذ المبادرة في الميدان بالذاتو ..... قل لي ، هل هناك شيء جدي يشدك إلى البقاء في المدينة ؟ .

ولأن مجيد لم يجب ، أضاف : لا شيء ، أليس كذلك أنا أعرف أنك تعيش بمفردك . فـإذا قررت بالاتفاق مع السلطات البلدية هناك ، ان ننتدبك للمزرعة رقم/5/ لبعض الوقت أتقبل بذلك ؟

وكأن سي والي تحرر أخيرا من حمل ثقيل ، فعاد واتكأ في ارتياح على مسند الأريكة . وبدا واضحا على مجيد أنه لم يكن ينتظر عرضا من هذا القبيل ، وخنق صيحة اندهاش كان على وشك إرسالها . هذا هو إذن مفتاح السر كله ، في هذا التمهيد الطويل ، والمودة التي أبداها المدير نحوه .

وأخيرا قال متعلثما : ادير الضيعة رقم /5/ . لا أدري يا سي والي إن كان في استطاعتي فقد كان الآخرون أكثر مني كفاءة ، ومع ذلك فشلوا . فقاطعه المدير وهو يدفع بجذعه إلى الأمام :

ـ هذه حجة أخرى . لقد درست ملفك الإداري مطولا ، فاكتشفت شيئا هاما . فالآخرون كما تقول ، هم نظريون ، لا يعرفون سوى ما تعلموه في المدرسة ، أما في الميدان العملي فهم لا يساوون شيئا ، والمطلوب شخص يفكر ويتصرف ، ولا يتردد في اتخاذ المبادرة ، وهو على بصيرة بدواعيها ، ويبدو لي أنك ذلك الشخص ، وإني أعطيك الفرصة لتبرهن على ذلك ، بإعادتك المزرعه رقم /5/ الى (السكة) .

هب مجيد واقفا ، ووضع الخريطة الملفوفة على المكتب ثم ترك أريكته ومضى ليعيد الملف الضخم الى درج الإضبارة الذي بقي مفتوحا ، قام بذلك في حركة آلية وهو يفكر . . .

ـ لا بد لي من جواب في الحال . . . مهما كان نوعه ولكن اعلم أن رفضا من جانبك سيخيب أملي كثيرا .

وعلقت في ذهن مجيد كلمة خيبة بما تنطوي عليه من التهديد ، كان لديه في ذهنه حجتان على الأقل للتخلص من العرض الذي قدمه له رئيسه معتبرا إياه بكل وضوح بمثابة ترقية .

حجتان كانتا أصل المخاوف التي ثارت في نفسه لأول وهلة ، الاولى تتعلق بالتهيئة النفسية ، ولكن الثانية بالنسبة إليه كانت أكثر أهمية ، فهو أدرى الناس بالحالة في المزرعة المذكورة . ومع ذلك فقد قرر أن لا يتعلل لا بالأولى ولا بالثانية ، فالمدير لن يفهم ذلك .

ـ أظن أنني سأكون مخطئا لو رفضت ، أطلق هذه العبارة ببساطة كأنه كان يحدث نفسه ، بينما كان سي والي يلتزم الصمت ، ثم انتهى قائلا بصوت أكثر تصميما « شكرا يا سي والي ، سأعمل كل ما في وسعي » .

وارتسمت على وجه بولحية ابتسامة نادرا ما ارتسمت بمثل هذا الاشراق ، فقال وهو يهب واقفا :

ـ هذا هو القول الفصل . كنت ستضعني في وضعية مزرية لو كنت قد رفضت ، لأن تعيينك قد تم بصفة رسمية تقريبا ، فقد اتخذت المبادرة ورشحتك لعضوية المجلس البلدي للتنشيط ففزت بدون عناء ، إذ يبدو أنك معروف هناك .

ـ لي كلمة أيضا يا سيدي ، هل انتدابي نهائي ؟

ـ ليس هناك أي إشكال ، لقد اقترحت ان تنتدب هناك من أجل إصلاح الوضع ، فتقيم لهذا الغرض ، الوقت اللازم لذلك ، ولكنك ستحتفظ بمنصبك هنا فترجع اليه ، إلا إذا رغبت في تجديد انتدابك حينما تكون الأمور تسير على ما يرام وفي كلتا الحالتين فإن الجزاء بقدر العمل .

والآن يبدو أنه حان الوقت ليعلم زملاؤك الخبر ، وعليك أيضا أن تبقى معنا لحضور جلسة العمل لنهار اليوم ، وكذلك لتغتنم الفرصة وتعلم عليان الذي سيخلفك خلال غيابك . يبدو لي أنه متمرن بما فيه الكفاية في شؤون زراعة البقول حتى يضمن السير الجيد للمصلحة . وتحفظ مجيد ، فلم يصدر أدنى اعتراض ،

إنه سرعان ما سيلاحظ، ان عليان كان يمضي وقته في انتظار راتبه الشهري متمنيا دوما وعلى مر الشهور ، زيادة في الراتب حتى يتسنى له كما يصرح بذلك ، أن يفكر جديا في الزواج هذا الا اذا أحدثت فيه مسؤولية الإدارة تحولا جدريا .

كان فقط ينتظر سي والي أن ينتهي من خربشاته فوق مكتبه ليطلب منه قائلا :

ـ هل أستطيع أن أحصل على راحة لمدة يومين أو ثلاثة حتى أعد نفسي ؟

ـ بالطبع ، سيكون انتدابك ساري المفعول من بداية الشهر القادم ، فلديك إذن ستة أيام بطولها ، لكي تهيء فيها عدتك ، وربما تغتنم فيها الفرصة فتذهب لتتعرف على المكان . اعتبرها مكافأة تمنح لك مسبقا لأنك حينما تذهب وتستقر في ذلك المكان فانني أراهنك على انك لن تجد فرصة قبل مرور مدة طويلة ، لتأخذ فيها أدنى قسط من الراحة .

ـ فعلا ، فان عملي هناك سيتمثل في الاعداد لتعيين مدير آخر.

ـ هذا هو بالضبط .. اجعل العمليات تنطلق ، ولكن بشكل يجعل من أي مسير آخر قادرا على استخلافك في عملك .

* * *

حينما غادر مكتبه متوجها الى هذه المقابلة التي بدت له مدتها بلا نهاية والتي لم تستغرق أكثر من نصف ساعة ، كان مجيد

حينها يدفعه حب الاطلاع ، أما الآن وهو يقطع الرواق في الاتجاه المعاكس ببطء محييا في بعض المرات دون أن يعرف الناس الذين كانوا يمرون بجانبه ، فانه كان يشعر أن قلقا ممضا ، أخذ يخالط نفسه ، ويغشي على أفكاره شيئا فشيئا ، كان خائفا تقريبا ، من هذه المسؤولية الجديدة ، التي لا يشك في أنها ستسبب له هموما كثيرة . وخطرت بباله ، وبشكل غريب الجملة التي طالما صفع بها أولئك الموظفين العاطلين الذين كانوا يترددون على مكتبه «الوسادة الطرية ، ونوم الصبحية ، تخلق رجالا ضعاف ، وقلوبا تخاف » .

كان المثل المفضل عند جده ، ذلك الرجل العاقل الذي كان يحدثه كما يحدث شخصا راشدا ، في الوقت الذي لم يكن يتجاوز فيه الثامنة من عمره .. باختصار ، كان مجيد يعرف أكثر من جيد ، طبيعة الأدواء التي كان القطاع المسير ذاتيا يعاني منها ، سواء أكانت صناعية أو تجارية أو فلاحية ، إنها تنحصر كلها في زاوية وحيدة ، ولكن كم هي واسعة انها «عدم تطور الانسان» .

كانوا كثيرين ، أولئك الذين رأوا ـ وقد استرجعت السيادة الوطنية ـ أنهم عانوا بما فيه الكفاية من المحن بكل أنواعها ، فكان أن أخذوا بحماس زائد عن اللزوم ، تدعمهم في ذلك فكرة الحرية ، فقد فكروا أنه بحلول السلام ستحل جميع المشاكل القائمة ، ويكفي أن يتركوا أنفسهم يحيون ، فالبلد وافر الرخاء ، ويستطيع أن يضمن العيش الرغيد لكل ابنائه .

ومع صعوبات السنة الأولى من الاستقلال ، كان من اللازم أن يتخلى الناس عن تلك الأوهام . واذا اندفع البعض في الحال ـ متفهما هذه الحقيقة ، في عملية إعادة البناء ، فان هناك البعض الآخر قد أصروا على الاحتفاظ بأوهامهم ، بالعزوف عن بذل أي جهد ، مغتنمين أدنى فرصة لإرواء غليلهم ـ الذي شحذته السنون الطويلة ـ من الرفاهية والكسب ، كذلك الذي كان يطمح أيام الدم والنار في المزرعة الغنية لأحد المعمرين ، وربما صار بعد ذلك مستغلها الوحيد لبضعة شهور ، فصعب عليه ان يرغم على تركها ، بل الأمرّ من ذلك أن يقتنع بالعمل بها مقابل أجر متواضع ، وفي غالب الأحيان لا يدفع بصفة منتظمة .

هؤلاء الحاضرون في كل مكان ، هم الذين يقوضون أحيانا وعن غير وعي أسس التسيير الذاتي ، وهؤلاء هم الذين ينبغي أن يعودوا إلى الصواب ، وأن يؤخذ بيدهم من أجل تقويم صحيح للوضعية . ولن يصل مجيد إلى ذلك عن طريق الخطب المرتجلة من أعلى إحدى المنصات ، فالأفعال وحدها ، والنتائج الملموسة هي القادرة على التأثير .

كان ما يزال يفكر في كل هذا غير سامع من حديث سي والي الذي كان يجلس في الطرف الآخر لطاولة الاجتماعات سوى صدى كصدى الأعماق ، وكان يحدث زملاءه المجتمعين «أيها السادة ، قبل افتتاح الجلسة ، اسمحوا لي بأن أطلعكم على قرار اتخذته منذ قليل ... متمنين له الكثير من الشجاعة وربما الكثير من الحظ ، مع أني في الواقع لا أومن كثيرا بالحظ» .

وانصبت عليه نظرات إعجاب ، أو عدم اهتمام ، وسرت بعض الهمهمات ، وامتدت يد محفوظ «الأيديولوجي» القوية تصافحه ، ثم انتقلوا الى جدول العمل لذلك اليوم .

* * *

الفصـــل الثـــاني

كانت تشكل أثافي عظيمة ، وتصطبغ بلون معقد خلفته دخان نار عاتية ، ثلاثة صخور عظيمة ، تقوم في منحدر فتبدو وكأنها تركب بنايات الضيعة التي كانت تقع في الأسفل ، وتبعد عنها بخمسين مترا ، كحارس يقظ تجمد في مكانه الى الأبد. وبلا شك فإن سيد هذه الامكنة القديم ، لم يفكر طويلا حينما أطلق على ملكيته الجديدة اسم «مزرعة الصخور الثلاثة» .

كانت الأرض خصبة في هذا السهل الذي يرويه وادي علام ، بل إن هذه الخصوبة التي شهد بها العديد من المختصين هي التي تسببت في حوالي سنة 1880 في هجمة متوحشة «نحو الذهب» ، فقد أسرع هؤلاء المغامرون من القرن التاسع عشر وقد غادروا مناطق فقيرة يظل البؤس فيها إذا التصق بعائلة يتبعها خلال أجيال ، اسرع هؤلاء الى أرض واعدة ، كان قد استقر بها بعضهم بعد ، واعتبروها بمثابة وطن جديد .

حينما كان سهل وادي علام تحت طائلة المصادرة ، وعرض للبيع في ذلك الوقت بثمن بخس من طرف إدارة المزارع .

بعد بضع سنوات ، وتحت الصخور الثلاثة التي ثلمها (الديناميت) ثلما خفيفا ، كانت المزرعة تمتد حول منزل من ذلك الطراز الاستعماري الذي ما تزال توجد نماذج عديدة منه ، وقد بني بتكلفة عالية بفضل الإنتاج الذي جمع خلال المواسم الأولى من غلال القمح . ستة وسبعون هكتارا من أجود الأراضي وقد أعطاها موقعها الجغرافي الممتاز مكانة لا تقدر بثمن ، فقربها من الطريق الوطني ـ الذي شق من طرف المحكوم عليهم اثناء ظهور السيارة الأولى ـ جعل نقل محاصيل الأرض سهلة ميسورة . وكان الوادي قريبا منها ، ومن السهل الوصول إلى طبقة هامة من المياه في أقل من خمسة أمتار من الحفر ، وبعد ذلك بقليل جاءت مضخة مكانيكية قوية لتعوض الناعورة العتيقة ، وتسمح بزراعة مكثفة للحمضيات والبواكير التي كان (المتروبول) يبتلع بواخر بأكملها منها .

بالنسبة لرأس عائلة (بودار) الذي كان يبسط يديه على طولها ويقول «لقد صنعت هذه الملكية بيدي هاتين ولم أستعمل أداة سواهما» لم تقبل عليه الثروة في الحين ، ولكن حينما سدَّد القروض الهامة التي قدمت له من طرف الدولة ، انهالت عليه الفوائد ، وأصبحت الأرض التي استغلت الى أقصى مردودها غزيرة العطاء حقا . ولم تكن اليد العاملة مفقودة ، فسرعان ما

أقبل ناس تلك الجهة الذين التجؤوا الى قمم الجبال على إثر عملية انتزاع جماعي للأراضي بررت تبريرا مزيفا بعدم دفع الرسوم العقارية والضرائب ، وتكاليف أخرى فرضت من طرف الادارة الاستعمارية ، سرعان ما أقبلوا يعرضون قوتهم العضلية مقابل أجر منحط انحطاطا مزريا .

عمد بودار في الحال وقد وجد هنا منجما لا ينضب الى التخلص من بعض الأروبيين أمثاله ممن لم يسعدهم الحظ كان قد سجلهم في المدينة ، فالعامل (البلدي) الذي يستطيع المعمر أن يدفع له حسب مشيئته ، لم يكن بخيلا بقوته العضلية ، وعند الضرورة يمكن أن يلجأ الأروبيون ضده إلى وسائل لن يلجأ إليها الآخرون أبدا . وهكذا . وفي أقل من الوقت الذي يلزم لمضارب ذكي أن يحصل فيه على مكاسب ضخمة أو يفلس إفلاسا لا نهوض له بعده . أصبح بودار يتربع على ثروة معتبرة ، وقد كان من جهة أخرى شديد المهارة حتى لا يدان بتصرفات ، يمكن ان تثير ضده حقد الملاكين القدامى ، الذين صاروا عمالا عنده .

لم يكن بالطبع أفضل المعمرين ـ والكلمة نفسها لا تحتمل صيغة التفضيل ـ ولكنه كان يعتبر أن ضمان شروط جيدة لليد العاملة المحلية في مصلحته .

كان لعائلة بودار التي تعاقبت محاموها وقضاتها ، كما كان لها قبوها الخاص في المقبرة المسيحية الصغيرة للقرية الاستعمارية (ت) القريبة من هناك ، حيث كان الجد الأكبر العاطل عن العمل ،

يمضي كل مساء راكبا عربة ليلعب الشطرنج مع شيخ البلدية ، أو موظف البريد ، أو ليشرب الشاي المنعنع في الصالون المضياف لـ (القايد) ابو الثلاثة برانيس .

وكانت الساحة الشرقية للضيعة تستعمل في مناسبات مختلفة كمكان للقاء العائلات الاستعمارية ، القاطنة في النواحي القريبة ، فينظمون فيها الحفلات الراقصة ، او الولائم الضخمة فينتشر الشبان والشابات زوجين زوجين في الرياض المحيطة ، ووسط أحراش العنب للهو في الهواء الطلق .

ومن روابيهم العالية ، كان القرويون وهم مجتمعون في الساحة ، أوقابعون في منازلهم ، يسمعون أنغام تلك الموسيقى الغريبة عليهم ، وكان البعض يغبطهم على هذه السعادة الغامرة ، بينما لم يكن البعض الآخر ليطمع بعد حتى في مجرد الحلم باليوم الذي سيكنس فيه كل هذا ليترك المكان الى جيرة أفضل .

وظلت المزرعة ثرة الغلال ، بالرغم من الحروب ، ولكنها لم تتوسع . وقد ظل (بودار) حتى آخر حياته يحلم بضم بعض الهكتارات المحاذية لأرضه وهي لجزائري ضمنت له نياشينه العسكرية أن لا يجرد من ملكيته . عرض عليه ثمنا مرتفعا ، ولكن الآخر كان قد اتخذ المسألة على أنها مسألة مبدأ . فآخر الملاك من (الأهالي) لقطعة أرض في السهل لن يبيع أرضه ، حتى لو بقيت بورا ، حتى وإن لم يستفد عند تسويقه لمحصوله من التسهيلات التي يمنحها له بودار ، حتى وان لم تترك له الضريبة العقارية في كل سنة من

العائدات إلا ما يمضي به فصل الشتاء . وفي انتظار ذلك كان بودار قد لاحظ أن زراعة القمح التي خصص لها أكبر مساحة من الأرض لا تبعث على الرضى ، وهكذا ومنذ الخمسينات ، غطيت ثلاثة أرباع المساحة التي كانت مخصصة من قبل للحبوب ، بأشجار الكرم ، فاحتل العنب الأسود مكان القمح ، وغرست آلاف من الشجيرات ، كانت مستوردة من إحدى المناطق الفرنسية ، إلا أن المالك قد خص نفسه بقطعة هامة من الأرض للاستهلاك الشخصي ، فغرس فيها عنب الطاولة ، وجمع فيها أندر الأنواع ، وأغلاها ثمنا في السوق.

* * *

في سنة /1963/ أصبحت تعرف بالمزرعة رقم /5/ ، وقد أعطي لها اسم أحد شهداء الحرب التحريرية ، يرجع في أصله الى القرية المجاورة ، ولم تكن مزرعة الصخور الثلاثة تتمتع بسمعة طيبة لدى إدارة الزراعة ، صحيح ان جميع المزارع قد سببت المتاعب لأولئك الذين كلفو بضمان استغلالها ، فواجهتهم صعوبات كثيرة تسببت في تأخيرات معتبرة ، ولكن انتهى كل شيء الى السير في مجراه الطبيعي ، أو كاد ، إلا أن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة للمزرعة رقم /5/ . فقد غمرت الاحتجاجات من كل صنف مكاتب التعاضدية : أجور العمال لم تدفع ، وديون متنازع عليها ، واستغلال للسلطة من طرف المدير ، وتقادم العهد على المحال والتجهيزات ....

وبالرغم من المساعدة الحيوية التي منحت لها من طرف الدولة ، فان مسؤولي التسيير لم يتوصلوا بعد إلى إعادة النظام فيها .

وكان العمال الدائمون ، وجميع السكان المحيطين ، يتهامسون بأخبار خطيرة ، ويتحدثون ببساطة عن اختلاسات تفوق العديد من تلك الأعمال الدنيئة المشابهة لها ، والتي أدت بمرتكبيها الى عقوبات جنائية ، وترددت اصداؤها في الصحافة .

وخلال هذه الفترة ، حققت لهم بعض الزراعات الأخرى ذات الأهمية الثانوية أولى أرباحهم . كما وضعت الجمعية العامة للعمال على رأس لجنة التسيير ، رئيسا تتمثل فيه كل الصفات المطلوبة ماعدا السلطة ربما ، فالوناس لم يحاول أبدا أن يثبت سلطته ، مكتفيا بإعطاء دروس في الفضيلة لم يكن يصغي إليها أحد ، مثل المواعظ التي لا طائل من ورائها ، اما ما عدا هذا ، فهويفضل وبكل سرور ، العمل اليدوي على الانشغالات الإدارية التي كان يعتبرها من الاختصاصات المقصورة على ممثلي الدولة ، وتعليمه الناقص يبيح له في نظره مثل هذا الموقف .

إن حالة الخراب التي ترك عليها المالك القديم الضيعة ، والإتلاف المتعمد للمعدات أثناء الفوضى التي أعقبت فترة الاستقلال ، ولكن وبصفة خاصة الحالة النفسية والفكرية للعمال الذين ظنوا ، وبكل سذاجة ، أنهم ورثوا «بقرة حلوبا» وما عليهم الا أن يحلبوها . إن كل هذا جعل الازمة تستمر وتزداد حدة على الـدوام .

«ان مديرينا ، لا يمتلكون (الدوافع الكافية) هكذا كان يصرح في كل مرة (منظر) مصلحة التعاضدية ، مرددا هذه العبارة التي أصبحت موضة . وواقع الأمر أن العديد من المسيرين تعاقبوا على المزرعة ، فكان عزمهم الأول الذي لم يكن ليفوتهم أبدا إعلانه أمام العمال بُعَيْد تسلم مهام عملهم ، سرعان ما يضعف بمجرد أن يقوموا بجولة استطلاعية حول المزرعة ، أو يطلعوا على كشف الحسابات .

فبالرغم من قدراتهم المهنيـة التي اكتسبوها ، يجدون أنفسهم في حالة من العجز لا تتفق مع مسؤوليتهم فكانت تدخلاتهم ـ إن حاولوا ذلك ـ بئيسة ؛ ولا يلبثون أن يطلبوا نقلهم ، متعللين بانعدام الامكانيات المادية التي تسمح لهم بوضع حلول ناجعة .

وأمام هذه الحالة ، كان الوناس مبهوتا حائرا ، يحاول أن يفعل شيئا ، ولكن ماذا ؟ فشكاواه كانت تصطدم بمجلس بلدي للتنشيط ، يتمتع بالإرادة الحسنة ، ولكنه كان يتعثر في عدم تحمل المسؤولية من طرف أعضائه . أما هو فتنقصه الخبرة ، واختصاصاته الأخرى والحال هذه ، كانت قاصرة تماما . وكان العمال الدائمون ـ وهم أصل الداء ـ يشكون في تظلم من وضعية طال أمدها ، وهم يعترفون بأن في ذلك ضررا بمصالحهم ، بقدر ما فيه من ضرر بمصلحة الدولة ، دون أن ينتهوا أثناء اجتماعاتهم العديدة إلى تحديد ما ينبغي وضعه من طرق كفيلة بإزالة ذلك التسيب .

والحقيقة أنه كان لا بد من رجل يتمتع بصفات خاصة من الحيوية وروح المبادرة ليفعل شيئا مفيدا . كانت هناك حاجة الى رئيس لا يكون نظريا في تفكيره . وانما يكون عارفا بحقائق العمل الفلاحي ، وبتنظيم العمل ، ولكن الادارة كانت حتى هذا الوقت ما تزال تبحث عن حلول نظرية . وتحولت نقمة الفلاحين ضد رئيس المزرعة الذي ترك نفسه بطواعية ، يعامل معاملة «البورجوازيين» ، فلم يكن يرد بشيء على ما كان يعتبره مساسا بالغا بعفة نفسه وكرامته ، لأنه كان عليه ان يبرهن بالأعمال بأنه لم يكن لديه في واقع الأمر آية فوائد في المزرعة ما عدا أجرة يقبضها مثلهم ، وبصفة غير منتظمة كالآخرين وأسوأ منهم .

« إنني على استعداد لترك وظيفتي لأول طالب لها من بينكم » هكذا قال لهم ، وقد دفع ذات يوم إلى حد الضيق بمطالب أولئك العمال الذين لم يقبضوا أجورهم منذ ثلاثة شهور فقرر أن يتخلى نهائيا عن مسؤوليته . مع أنه كان يعلم من ناحية بأن النصوص القانونية لم تضع أي تحسب لمثل حالته هذه ، ومن جهة ثانية ، فإنه لا أحد يجرؤ على ترشيح نفسه لمنصبه . إذ لا بد للشخص أن يكون مجنونا حتى يتحمل عبء هذه المسؤولية .

* * *

في نهاية عطلته الاستثنائية التي سمحت له بإتمام استعداداته ، قرر مجيد أن يتقدم بكل شجاعة الى عمله الجديد «لينجح حيث أعلن كثير غيره عن فشلهم ...» شيء يثير الفضول ، لقد أعطته الثقة التي منحها له رئيسه ضمانا إضافيا ، لم يفت سي والي ان ذلك

التقني المساعد الذي لم يشفع له في متابعة فترة تدريبية سوى إعفائه من شروط العمر ، يمثل عينة نادرة المثال ، في المثابرة ، فما شرع في عمل إلا أنهاه على وجهه الأكمل .

أما مجيد ، فانه لم ير في نجاحه إلا أنه ثمرة تلك الليالي البيضاء الكثيرة حيث بذل أثناءها جهودا مضنية . اعتبر سي والي بأن هذا الاهتمام بالمهنة ، وهذا الحب للدراسة ، هما بالتدقيق عاملا الربح في هذا الرهان .

والواقع أن مجيد لم يستفد أبدا في صباه ، بتكوين مدرسي مقبول ، وقد أجاب مازحا الممتحن المكلف باختيار المتدربين حين سأله عن مستواه الدراسي «لقد كان الجبل شديد الوعورة من أجل أن أذهب إلى المدرسة ، ولم أقدر على تسلقه سوى عامين متتاليين» قال هذا لكي لا يعيد مرة أخرى قوله بأنه كان مضطرا لمغادرة الفصل من أجل العمل بطلب من والده الطاعن في السن .

وقد كان ذلك يشكل العقبة الرئيسية في طريقه حيث أنه لم يتمكن أن يرتفع الى مستوى زملائه في التربص الذي كانت دروسه تعج بالمصطلحات الفنية ، إلا بفضل رغبته الشديدة في التعلم ، فكرس نفسه للدراسة الجادة في الكتب الدراسية . والبحوث الزراعية ، وقد ساعدته على ذلك ذاكرة قوية ، فكان الوحيد الذي استطاع في صبر أن يتمثل في شهور قليلة المعارف التي يخصص لها الطالب العادي سنوات ليحصل عليها .

وقد تمكن من اكتساب بعض المعارف الأولية في بعض الخبرات المتعلقة بالتخطيط الزراعي ، والتَهَم كل الكتب التي تتحدث عن (الكولخوزات) السوفيتية ، وفهم نظام المركبات الزراعية الصناعية الذي قام بشرحه مهندس بلغاري . وتمكن بفضل الوثائق الفنية الموجودة في مكتبة المزرعة أن يعرف كل شيء عن التسيير الذاتي في يوغسلافيا .

وقاده كل هذا إلى الاعتقاد الراسخ بأن التسيير الذاتي هو أقل بكثير من أن يعتبر هدفا في حد ذاته بقدر ما هو وسيلة .

وفي نهاية التدريب ، لم يكن هناك من هو أحسن منه فهما وتنفيذا للمخططات الزراعية الأكثر تعقيدا ، ولا أحسن منه في تحديد نوعية التربة ومقادير الأسمدة ، ولكن كل معارفه هذه ، لم تجْدِه من الناحية العملية في شيء ، حيث أن عمله في المكتب كان عملا إداريا بحتا . وأخيرا فإن خبرته في هذا الميدان ، مضافا إليها استعداداته الطبيعية في مادة الزراعة ستجد حقلا للتطبيـق .

الفصــــل الثــالث

كان يثير الدهشة في الغالب وهو يعلن بلهجة جادة ومؤثرة ، تقابل بنظرات ساخرة أحيانا «الزراعة هي المصدر الثمين للحياة» . فقد كان مجيد يعتبر من سكان المدن ، في حين كان الناس الذين يقابلهم في أغلبهم حديثي عهد بالإقامة في المدينة ، وأغلبهم أهملوا أراضيهم ، أو عهدوا بها إلى خماسين ، ولذلك كانوا يحتقرون أن تعطى في حضورهم أية أهمية للعمل الفلاحي ، فقد عرف بكونه قليل المردود ، وهو زيادة على ذلك منهك ، وخدمة الأرض كانت دائما من نصيب المتمسكين بالتقاليد ، الذين عاشوا فيها عيشة بئيسة ، واستغلوها استغلالا سيئا . ولم يحصلوا منها على فائدة تذكر سوى ما حفظ عليهم أرواحهم من أن تزهق جوعا .

لا بد من الرجوع الى طفولة مجيد للعثور على أصل تعلقه الشديد بالأرض وبالخصوص تعلقه بزراعة الحبوب .

لا بد أن نتتبعه في ذكرياته حتى ذلك البيت المتداعي الذي كان يسكنه والداه ، في ذلك الوقت الذي لم يكن فيه بعد سوى تلميذ صغير بائس ، بلا أي تطلع نحو النجاح ، في منطقة يقطع فيها عمر الدراسة بمحض الاختيار وهو ما يزال في بدايته .

وقد بلغ سن المراهقة ولم ير خبزا أبيض مصنوعا من دقيق القمح الجيد إلا عند زملائه من أبناء العائلات الموسرة . كان أكله يقتصر على خبز الشعير ، وكسكسي الشعير بلونه الأسود الذي يقطع الشهية ، هذا النوع من الحبوب الذي يعيش عليه الفقراء والذي كان مجرد ذكره يعني البؤس .

ويتذكر مجيد ذلك الوقت الذي كان يتفوق فيه على أقرانه في لعب الكلل ، فيقول لمنافسه «أرد لك الكلل التي ربحتها منك ، مقابل قطعة من خبز السميد» .

كان لهذا الخبز طعم الفاكهة المحرمة ، ولذلك كان يحتفظ في فمه لمدة طويلة بكل قطعة خبز من تلك القطع الصغيرة الطرية ، والمغموسة بسخاء في الزيت .

وحينما كبر ، أصبح غالبا ما يقضي فترات طويلة يتأمل من أعلى الهضبة التي كانت قريته تجثم في قمتها ، حقول القمح المتموجة المترامية الأطراف في السهل . وفي هذه اللحظات تكون عيناه مشحونة بالرغبة ، إذ توجد هناك كنوز حقيقية ، في الصيف يكون هناك امتداد ذهبي فسيح الأرجاء من هكتارات القمح تعبث فيها أشعة الشمس .

وحين تتحرك مكائن الحصاد كان يخيل إليه أن هناك رائحة نفاذه للحنطة تعلو في الهواء الحار حتى تصل إليه ، في نفس الوقت الذي ترتفع فيه أنفاس متلاحقة من الضجيج ناتجة عن شخير الآلات . أما في القرية ، فكان نصيب العدد الأكبر من الأسر هو أن تعيش على الشعير وحده ، فقد كانت الأراضي شديدة الجدب ، مستنفدة بفعل الانجراف ومستغلة الى حد الإنهاك وهي لذلك غير قادرة على إنتاج القمح ، أما السنابل الوحيدة التي لم يحدث ان استقام مثلها في حقول المنحدرات المجاورة فهي ملك للرجل الوحيد الغني في ذلك المكان والذي ـ كما لابد أن يكون ـ يملك قطعة الأرض الأكثر سخاء ، والتي حفظتها الطبيعة من عوامل التعرية والانجراف في ذلك المكان .

وكان والده يملك مربعا صغيرا من الأرض ، على بعد مسافة من القرية ، ومع ذلك صرح له ذات مرة من تلقاء نفسه «لقد لبست طوال شهور كيسا من أكياس البطاطا عوض الثياب ، وأمك لم تغادر المنزل لشهور عديدة ، لأنها لم تكن تملك تنُّورة تستر بها جسمها ، وكل هذا من أجل تسديد الدين الذي علق بذمتي حينما اشتريت أرض عفير» .

وعفير هذه لم تنتج أبدا سوى الشعير والذرة منذ أن ضيع الوالد هدرا (ديكالترين) مضاعفين من البذور ذات مرة ، لكي لا يجمع في الموسم الموالي سوى محصول ضئيل من قمح متوسط النوعية وثلاثة أو أربعة حزم من التبن .

وكان مجيد يحب مرافقة والده حينما يتجند سكان القرية في عملية «التويزة» لحصاد محصول الرجل الغني ، فهذا العمل يمكنهم من تناول عدة وجبات «بيضاء» (1)

وكانت أيام التذرية في البيدر لا تفوته أبدا ، حيث يتم فصل الحب عن التبن بضربات عالية بالمداري على هبات نسمة خفيفة ، تنتظم بعدها بضعة أكياس فوق بعضها البعض ، وينظر بحزن إلى المحصول الهزيل الذي يشكل نتيجة هزيلة مقابل أتعاب مضنية ، ويدور بخلده حينئذ أن الأرض في السهل ليست ظالمة بهذا الشكل أو هي ظالمة على الأصح ، حيث أن تقتيرها على الذين كانوا مضطرين الى العيش على الكفاف ، كانت تعوضه في الأسفل بكرم مفرط لفائدة أولئك الذين لم ينقصهم الخبز أبدا .

وإذن فقد كان الجوع الذي كابده في إذعان أثناء صباه هو الذي أشرب فكر مجيد بذلك الاقتناع الراسخ بأن القمح لا يمكن أن يقارن بأي نتاج فلاحي آخر ، ولم يكن يخفي هذا الاقتناع عن أي كان ، وربما كان لهذا أيضا تأثيره في القرار الذي اتخذه المسؤولون ، وذلك بإسنادهم له إدارة المزرعة رقم/5/ .

* * *

حينما كان مجيد يقطع الرواق الطويل المصنوع على شكل عريشة وارفة الظلال ، والمؤدي الى مدخل (ڤيلا) السيد ، داخله شعور مضجر عاد به عشر سنوات الى الوراء .

---

(1) يقصد وجبات من دقيق القمح (المترجم)

كان عليه أن يجد عملا ، وباستثناء قوة ساعديه ، لم يكن يمتلك أية وسيلة للعيش . وكانت وضعيته كمسؤول عن الأسرة قد مكنته من الحصول على إعفاء من الخدمة العسكرية ، ولكن قطعة «عفير» كانت لا تنتج أي شيء . وبعد أن عمل في القرية كأجير باليوم عند بعض الملاك ، حيث كان يضمن معهم معدل يوم عمل واحد في الأسبوع ، فكر في اجتياز البحر ، ثم رأى انه منطقيا لا يستطيع ذلك الا حين تنطفيء جذوة (خشبتي) المنزل والده ووالدته العاجزين تماما .

لأجل هذا ، كان يقف ذلك اليوم عند مدخل مزرعة «الصخور الثلاثة» . الجوع وحده هو الذي يدفع بصاحبه الى مثل هذه المواقف . لم يخجله ذلك ، ولم يزد شعوره بالخجل وهو يرى نفسه محاصرا من طرف كلبي الضيعة ، وقد راعهما وأزعجهما وجوده «تعال ديك ، ميكي . كفى .. وأنت تقدم ماذا تريد ؟» .

كان كل عضو من أعضاء مجيد يرتعد فرقا ، ومع ذلك فقد تمكن من أن يفهم العجوز الغبي الذي أسكت الكلبين الضخمين بأنه جاء يبحث عن عمل . ورد عليه في لهجة جافة :

ـ ليس هنا ينبغي عليك أن تتقدم ، اذهب وقابل «وكيل الأعمال» .

كان المالك قد وضع كل الأمور المتعلقة باستغلال الأرض في يد وكيله ، وهو رجل مالطي ، لا يتذكر مجيد بشأنه شيئا سوى أنه كان ـ من وراء مظهره الخادع ـ لا يحب الجزائريين الذين

كانوا يعملون تحت تصرفه ، والذين كانوا في أغلبهم عمالا موسميين .

عاش مجيد مرة أخرى كل هذه الذكريات ، وكان في غاية الاضطراب النفسي ، في الوقت الذي اقترب فيه من مدخل الفيلا ، وكان أحد العمال قد قابله في الطريق ، وأعلمه ان رئيس لجنة التسيير يسكن في الفيلا .

وكانت مهام وظيفته تبدأ في نفس ذلك اليوم ، ولكنه لم يستطع أن يأتي في الصبيحة بسبب بعض الشكليات الإدارية . ولم يهاجمه أي كلب . وكان قد فكر بأنه ليس من اللائق أن يحضر في وقت الغداء ، ولذلك قضى ما يزيد على نصف ساعة متجولا في الطريق بمحاذاة كروم المزرعة التي كانت مسيجة بسور من الأسلاك الشائكة يعزلها عن الطريق الوطني ، وبالتأكيد أنه كان سيعدل عن نيته هذه لو سأل مسبقا عمن هو الرئيس .

* * *

« أنوا وافي » (1) .

كانت مفاجأة مجيد لا مثيل لها ، فتوقف لحظة مدهوشا بتلك اللهجة المألوفة لديه ولصيغة النداء . وانفتح الباب ، وبرز منه وجه يعلوه طربوش أحمر حائل اللون ، ولم يكن مجيد في حاجة إلى أن يتفرس طويلا في ملامح الرجل ليتعرف عليه ، فصاح متعجبا :

– سي الوناس ، غير معقول . أمازلت على قيد الحياة ؟

---

(1) من هناك ؟ (المترجم)

إنه يذكر هذا النداء ، كما يذكره بالحراسة أمام المخبأ ، فقد كان يوقف من مكانه بالباب ، في خشونة ، كل قادم ، ويكرر بهذه الطريقة كلمة السر ثلاث مرات ، بمجرد حدوث حركة في الغابة المحيطة ، قبل أن يرسل خنجره في الهواء .

لقد مضت بعد سنون على ذلك . قال له الوناس وهويضحك :

ـ لم تكن تتوقع هذا ، أليس كذلك ؟ ثم مد إليه يده مصافحا

ولم يكن مجيد بالفعل يتوقع مثل هذه المفارقة التي وضعته أمام صديق قديم ، وفي مكان كانا قد شاركا فيه معا في الماضي وبحكم الضرورة في صنع رفاهية المالك القديم . وتلقيا معا ، طوال شهور سخرية وظلم وكيل أعمال ، اشتهر بقسوته وعنصريته .

كان مسؤول المزرعة المنتخب قد أعلم بتعيين مجيد ، في حين كان هذا الأخير يجهل مع من سيكون عمله . وقد كانا رفيقين في السلاح أثناء الكفاح التحريري ، ولمرات عديدة نجوا بأعجوبة من الموت . ثم جرح الوناس أثناء اشتباك مع العدو ، ولأن رفاقه لم يتمكنوا من نقله في الحين فقد قبض عليه من طرف العدو . وكان مجيد يعتقد أنه توفي .

ـ قرأت اسمك مرات عديدة في الأوراق الرسمية ، ولكن لم يخطر على بالي أنك أنت المقصود ، فأنت بالنسبة إلي قد بعثت منذ لحظات إلى الحياة مرة أخرى .

كانت نفس هذه الفكرة ، هي التي جعلت الرجلين يندفعان

نحو بعضهما البعض في عناق ودي . وقد كانا في غاية التأثر بمشاعر اللقاء ، ثم دعا الوناس صديقه للدخول .

وسأل مجيد :

ـ كنت إذن على علم بمجيئي ؟

ورد عليه الرئيس في انشراح غامر

ـ إن المفاجأة التي حدثت لك قبل قليل هي أقل بكثير من تلك التي حدثت لي عندما أعلن عن اسمك في المجلس (1)

وبعد تبادل قصير لعبارات المجاملة اعترف مجيد ـ أمام إلحاح سي الوناس ـ بأنه جائع جدا ، وقبل بكل سرور أن يحتل مكانه أمام المائدة التي كانت معدة . وأثناء الأكل راح الرجلان يعيدان ذكرياتهما المشتركة .

قال الوناس وهو يكشف عن الأثر البشع ليده المقطوعة ، الذي كان يخفيه تحت كمه الأيمن :

ـ كلفتني أربعة شهور في المستشفى شظية قنبلة أطارت اليد التي تمسك بالمسدس . ثم أضاف :

ـ ثم حياة المعتقلات بعد ذلك ، ثلاثة أو أربعة في أقل من عام . ولحسن الحظ أنكم لم تتركوا المسائل «فوق» تأخذ وقتا طويلا . ثم أنهى الوناس كلامه بقوله :

---

(1) المجلس البلدي لتنشيط التسيير هو هيئة تأسست بقرار /22/ مارس / 1963 (الفصل /2/ المادتان /23 و24) ومن مهامه تنسيق نشاط وعمل المؤسسات المسيرة ذاتيا ، التابعة للبلدية ، ويكون مقرها بالمقر الرئيسي للبلدية وموافقتها لازمة لتعيين مديري المزارع .

ـ يعني ،، واحدة ناقصة وكأنه أراد بقوله هذا وضع خط فاصل لتلك الحلقة المؤلمة من حياته. ثم أضاف :

ـ ولكن هذا لا يمنع من أنني كنت أرغب أن أواصل معكم حتى النهاية .

ـ هل مضى عليك وقت طويل وأنت مكلف بتسيير المزرعة .5.

ـ عام ونصف . ولا أخفي عليك بأنني لم أجد طوال هذه الفترة سوى النكد ، فالمصاعب تمطرنا من كل جانب ، وإنني أخشى كثيرا أن يدفع بك ذلك إلى التخلي عن المزرعة بدورك كما فعل أولئك الذين جاؤوا قبلك .

وأجاب مجيد .

ـ لم أقرر أي شيء بعد ، وأنا واثق أنه بمساعدتك سنصنع شيئا من هذه المزرعة .

ـ اوه أنا ، أتدري ؟ إن مساهماتي في الحقيقة محدودة ، ولا أمثل سوى ضمان معنوي ، ومبادراتي لحد الآن اقتصرت على حث العمال على الصبر .

حينما انتهى الغداء ، استطاع العامل القديم لمزرعة «الصخور الثلاثة» أن يتأمل في هدوء الغرفة ذات الجدران المبطنة بخشب (الأكاجو) والمؤثثة بسخاء على الطراز الفرنسي التقليدي ، حيث استقبل ذات مرة فيما مضى من طرف السيد القديم للمكان .

وقد شعر لبعض الوقت بعدم الارتياح وهو يجلس في إحدى الأرائك الوثيرة ، لأن ذلك ذكّره بذلك الوقت الذي كان يعتبر فيه من الكائنات الدنيا ، بالرغم من البشاشة الخادعة لصاحب

البيت . كان في ذلك اليوم يجلس على حافة هذه الأريكة بالذات ، وكأنه يجلس فوق حسك شائك . وزاد على ذلك فقدم له سيجارا وهو يعلن بلا مقدمات :

«لقد قررت أن أتخلص من المالطي ، فقد لاحظت أن بعض الحسابات تنطوي على نقائض مقلقة» .

ـ لا أعتقد ياسيدي أنه قادر على مغالطتك ، وهو يسهر على مصالحك بشكل جيد ، بحيث يعاقب العمال لأتفه الأسباب عقابا شديدا .

ـ المسألة ليست هذه .. ومن جهة أخرى فإن هذا السيد يسمح لنفسه على ما يبدو ببعض التجاوزات على إخوانك . وهذا بالتأكيد لا يعجبك على الأقل .

نعم كان ذلك لا يعجبه ، ولكن لم يكن الوقت مناسبا للحديث عنه ، فمجيد كان يعرف معرفة جازمة بأن المالطي كان يتصرف بمباركة من صاحب العمل ، ولم يكن هذا الأخير بالتأكيد هو ذلك الحكم الذي ينبغي التوجه إليه .

وأخذ يتساءل في نفسه عن الغرض من هذه المقابلة ، أهو ببساطة من أجل أن يعلمه بأن المالطي غير أمين ـ وهو ما يشك مجيد فيه ـ خاصة وأن المعمر ناداه في وقت بلغ فيه العمل أقصاه ؟ لا بد أن هناك أمرا آخر .

أنت هنا في ملكك ياسيدي ، وما نحن إلا عمال ملزمون بالعمل من أجل كسب عيشنا ، والمالطي نفسه يؤدي عمله مثلنا ليس إلا .

ـ طا ، طا ، طا ، أنت لا تفكر فيما تقوله . اسمع إن المالطي قد أصبح في هذه الفترة يتصرف تصرفا سيئا ، فقررت أن أستبدله ، وقد فكرت فيك أنت ، وزملاؤك سيفرحون حينما يرونك رئيسا عليهم . وإخوتك في الجبل سوف لن يكون لهم أي سبب لمهاجمة محاصيلي الزراعية ، فكر في الموضوع ، سوف تكون لك هنا فوائد كبيرة ، وتستطيع أن تسكن في الجناح الذي يسكنه المالطي حاليا ، وتستطيع حتى أن تنزل فيه أسرتك .

هكذا إذن ، فالمعمر لا يرمي سوى إلى الحفاظ على ممتلكاته من الكوارث التي أصابت العديد من المزارع المجاورة .

ـ انا آسف ياسيدي فإذا قرر أولئك الذين «فوق» أن يهاجموا ضيعتك ، فإن مسألة أن أكون أنا وكيل الأعمال لن تمنعهم من ذلك ، وزد على هذا أنني أخاف على نفسي أنا أيضا .

ـ ولكن افهمني ، انت يمكنك أن تتصل بهم ، وأن تشرح لهم بأنني لست مثل الآخرين . أنا شيخ كما ترى ، وأولادي كلهم لديهم مهنة ، وقد استقروا في المدينة ، وعندما أموت ستؤول هذه المزرعة الى الجزائريين ، لأنني أعرف أنكم ستربحون الحرب ، وبالإضافة إلى هذا ، فأنا مستعد أن أدفع إذا طلبوا ذلك مني .

وفكر مجيد طويلا ، وتواردت على ذهنه أسئلة كثيرة ، افرض أن في الأمر حيلة من أجل أن يعترف بأن لديه اتصالات بالجبهة ، من يستطيع أن يجزم بأنه لن يخرج عليه فجأة جنود

مسلحون من إحدى الغرف ويقبضوا عليه ؟ فمثل هذه الحيل كانت عملة كثيرة التداول . ولكن من جهة أخرى ، كان يبدو على الشيخ أنه خالص النية فيما يقول ، كان يقرأ في نظرته التي كانت مركزة عليه ترقبا مليئا بالأمل .

لا ان مجيد كان قد اتخذ قرارا بعد ، ولم يفرط في تأجيله إلا بسبب والديه ، فهو لن يصبح وكيل أعمال بمزرعة استعمارية ، في الوقت الذي يلتحق فيه الآخرون بصفوف المقاومة بالمئات ، وهذا بالمناسبة ، من أجل وضع حد للنظام التعسفي .

وخطر بباله في هذه اللحظة حديث دار بينه وبين صاحب المزرعة ، فقد عمل هنا خلال عامين بصفة متقطعة في تنقية الزرع من الحشائش الضارة ، وأثناء الحصاد .

وذات يوم ضاق المعمر بأن لا يزرع في مساحة واسعة إلا الحبوب والخضر ، فخطرت بباله تلك الفكرة السيئة بأن يخصص حوالي ثلاثين هكتارا من أجود الأراضي المخصصة للقمح ليزرعها كروما . وجلبت لهذا الغرض آلاف الشجيرات ، ففكر مجيد مليا ثم انتحى بصاحب المزرعة وكان قد حاز تقديره بسبب سيرته الحسنة وجديته ، وقال له :

ـ اعتقد ياسيد (بودار) بأن قرارك باستبدال القمح بالكروم ليس قرارا صائبا .

وتأمله بودار طويلا ، وقد ارتسمت على وجهه المتغضن علائم الدهشة والسخرية على التوالي :

ـ ولكن يا ناصحي الطيب ، أنا لا أدفع لك أجرا من أجل أن تفكر عوضا عني .

ـ ياسيدي هذا البلد في حاجة إلى القمح لا إلى النبيذ .

ـ من حدثك عن هذا البلد . إن القمح قد تلف في الأهراء ، بينما يجد الخمر الجزائري إقبالا عليه في فرنسا ، هل تعلم هذا ؟ التحق برفاقك ، فإن قراراتي لا تخصني إلا أنا .

وابتعد مجيد منحيا باللاَّئمة على نفسه . شاعرا بنظرات صاحب المزرعة مسلطة على ظهره ، معانيا خجلا لا حدود له . حقا ، لِمَ التدخل فيما لا يعنيه ، كان عليهأن يقول لنفسه : في جميع الحالات ، وسواء أكان قمحا أو خمرا ، فإن المحصول غير موجه له ولا لأمثاله . ولكن عاطفته هي التي أثارت حماسه . لأن المعمر من جهة كان يعرف الفوائد العديدة التي كانت تمثلها بالفعل زراعة الكروم ، ومن جهة ثانية لم يكن هو وأمثاله مرغمين ـ من أجل الحصول على القمح ـ أن يزرعوه في أراضيهم .

رفض مجيد العرض تاركا الشيخ خائبا . وغادر الضيعة في نفس اليوم ، وبعد أن وضع بين يدي والده ما اقتصده من مال قليل استطاع أن يحققه بالحرمان الشديد ، سلك الطريق الجبلية الوعرة ـ وعلى نفس واحد ـ قاصدا ملجأ الثوار حيث كان يعلم أنهم في انتظاره ، لأنهم كانوا قد عرضوا عليه مرات عديدة المشاركة في الأعمال المسلحة عوض الاكتفاء بالاعمال الفدائية الفردية والخطيرة في نفس الوقت .

لن يتمكن من رؤية تاسعديت مرة أخرى . لقد انتظرت بلا طائل أن يتوج حبها الذي يرعيانه في السر ، والذي ارتبطت اواصره في سحابة الطفولة ، بزواج علني .

«ها أنا مازلت أفكر فيها .. بعد عشرة أعوام» . نطق ذلك في همس حتى لا يسمعه مرافقه . ولكن هل انقطع في واقع الأمر عن التفكير فيها ؟

كانت تاسعديت ، تلك المخلوقة النحيلة الشقراء ، حاضرة في كل مكان حينما يتذكر حلقات صباه . شاركته في ألعابه في الوقت الذي كانت سنه الصغيرة تفتح له أبواب جميع بيوت القرية .

وفي فترات الجوع ، كانت تقدم له قطعا من الكسرة ، كانت تخفيها في صدر فستانها .

وبعد ذلك ، وحينما جاءت تلك السن التي يصبح فيها الاختلاط غير لائق ، إذا لم نقل يصبح مستحيلا تماما ، حيث تبرز العلاقات الاجتماعية في أشد صرامتها . وخضوعا منهما للفوارق المادية ، فقد استعملا حيلا شتى لكي يتقابلا في الخفاء بصفة منتظمة .

كان يراقبها وهي في طريقها إلى العين التي كانت تسلكها عدة مرات في اليوم ، وحينما تكون وحدها ، يقف معها لبضع دقائق محدودة في ظل شجرة الزيتون الكبيرة التي يخفيهما جدعها عن أعين المارة ، ويقسم كل واحد منهما بأنه سيكون للآخر ،

وهو القسم الذي كانا يجددانه لبعضهما في كل مرة . كان عمره ستة عشر عاما وكان عمرها أربعة عشر .

...في يوم إعلان الاستقلال ، لم تكن تاسعديت حاضرة بين الفتيات الفرحات اللائي تحررن من معوقات التقاليد ، لتستقبل بطلها .

رصاصة طائشة حصدت حياتها البئيسة وسط البراري ، وسقطت سلة الخيزران التي كانت تحملها على ظهرها بالقرب منها . وتفرق ما كانت تحويه ، وهو أكل كانت تحمله للمقاومين المنعزلين .

كان عمرها حينئذ ثمانية عشر عاما . وارتسمت على اللون الأحمر والأصفر لفوطة تونسية ، لطخة عريضة من الدماء .

وتنهد مجيد ، وكأنه ليتخلص بذلك من هذه الذكريات المتزاحمة . فقد انثالت الأفكار على ذهنه بالرغم منه . مع ذلك لم يأخذ من الوقت سوى بعض اللحظات ، دقيقة سهوم ، وهو الوقت الذي استغرقه الوناس داخل المطبخ في إعداد القهوة .

كان الوناس كما صرح له منذ قليل يعيش وحيدا في «الفيلا» الكبيرة . ـ ايه نعم ، لا أحد .. هكذا فجأة ونحن لا ندرك ذلك بسبب تأثير الفعل ، ولكن صدقني إن الصحو بعد ذلك لمؤلم ، فقد سقط مبارك أثناء اشتباك في «أكفادو» اما الآخرون فقد سقطوا قبل ذلك ببضعة أشهر حينما قصفت القرية ، فدفنوا تحت

الأنقاض . وتجد عند آلاف الناس الذين نجوا الكثير مما يروونه . إنها الحرب .

وخيم عليهما صمت مضجر ثم راح الوناس في الأخير يملأ الفناجين بعد أن ترك إبريق القهوة يستقر بعض الوقت ، وأخذ مجيد يتجول ببصره فيما حوله ، في الغرفة الكبيرة التي كانت تستعمل قديما كبهو استقبال . وكان يتوقف عند كل صغيرة وكبيرة ، ثم قال :

ـ « هل تعلم يا سي الوناس أنني أتعجب ! من تركك لهذا الأثاث الذي يقدر بثروة ، يتدهور بهذا الشكل ، أم تعودك على حياتك السابقة ؟ ألم تألف بعد مثل هذا الديكور» . وأخذ الوناس وقتا ليبتلع فيه جرعة من القهوة ثم قال وهو يمسك الفنجان بإحدى يديه ، ورسم حركة شاملة مشيرا فيها بصفة مجملة إلى كل الأشياء التي كانت تحيط به .

ـ كل هذا يبدو في عيني موسوما بطابع حزين ، ويحمل ذكريات حزينة ، كان يعتريني إحساس بإحياء ذكرى المالك القديم لهذا المكان بمجرد اقترابي من إحدى أرائكه ، ففضلت أن أتجاهلها .

ـ لتعلم مع ذلك . بأن كل هذا قد تم الحصول عليه بفضلنا نحن ، حتى وإن لم نستشر قبل شرائه ، إنه على أية حال نتاج عرقنا ، ومن العدل أن يعود إلينا ، ولتعلم أنه اذا كان هناك الكثير ممن يفكرون بأن الاستعمار قد ترك لنا العمارات الحديثة ،

والطرق الواسعة ، فإن هذا خطأ ، إننا دفعنا ثمن كل ذلك غاليا ، هل تعتقد أننا أعطينا الوقت للاستعمار عن قصد لينقل لنا رفاهية الغرب ، ثم نطرده بعد ذلك من أرضنا ؟

ـ يا سي مجيد « يرحم والديك » أرى أنك تعلمت أشياء كثيرة في المدينة ، ولكن دعنا من هذا الموضوع إلى يوم آخر . اما بخصوص هذا الأثاث فسوف لن أيأس ان أستقبل فيه هنا ذات يوم واحدا يقرر أن يسير المزرعة على الوجه الأكمل وأن يقيم من أجل ذلك مدة أطول ، وقد يعجبه المكان فيؤسس بيتا ، ويتزوج مثلا من إحدى فتيات البلد ، ولن يعدم وجود نساء في سن الزواج هنا في القرية ، ومن يدري فلعلك ذلك الرجل الذي أنتظره .

ولمع بريق ماكر في عيني الوناس ، وأخذ منه مجيد زمام المبادرة فانفجر ضاحكا ، وجاراه زميله في الحال وراح يفتل شاربه الأسود في حركة مألوفة لديه .

ـ إذا فهمت جيدا فانك تنوي أن تنزلني وسط كل هذا الأثاث الفاخر حينما تزوجني .. وعلى أية حال تبدو الفكرة جيدة .

ـ لو كان الأمر متعلقا بي أنا شخصيا ، لكنت قد تخلصت من هذا الزخرف منذ زمان ، وسلمته لأولئك التجار الجشعين بائعي الأثاث القديم فنقلوه غداة وقف إطلاق النار . ولكني لست هنا إلا بصفة مؤقتة ، ضع هذا في بالك ، أنت يامن يبدو عليك أنك تضعني موضع الاختبار ، سوف يكون أولئك الشباب

الذين سيأتون من بعدنا ويتسلمون المسؤولية ، سيكونون بالتأكيد في حاجة إلى الرفاهية المادية ، أما نحن فليس لنا فيها سوى صنعها ... وبعد فإن هذه الذكريات بالرغم من طابعها الحزين فإن لها فائدتها ، ولكل عمل جزاء ، وبقدر الآثار الباقية .

كان الوناس ما يزال مسترسلا في حديثه بلا انقطاع ،في الوقت الذي كان فيه مجيد قد انشغل عنه ، انهالت على فكره صور ما تزال تحتفظ بجدتها ، رأى المعسكر من جديد في الجبال ورأى ملجأهم فيه . وهو كهف واسع كانت تتردد عليه الضرابن والخنازير البرية ، ويتقاطر الماء من جوانبه ، وقد خفي هذا الملجأ على أكثر حملات التفتيش دقة ، تلك الحملات التي كان يقوم بها الجنود الفرنسيون ، أثناء عمليات التطهير (راتيساج).

وكان يمثل مأواهم المشترك لشهور طويلة ، حينما لا تضطرهم بعض المهمات الكبيرة لتغيير المنطقة .

ذلك ما جعل مجيد يضحك وهو يقوم بعملية مقارنة مع ما شاهده من الامتيازات المادية الكبيرة التي يتمتع بها مسؤولوا المزارع من وظيفتهم إلى درجة أهملوا فيها المهمات الموكلة إليهم .

ولم يستطع أن يمنع نفسه من ذكر ذلك للوناس الذي اكتفى بهز رأسه . كان لمجيد الوقت الكافي وزيادة ، لكي يضع في اعتباره ، بأن رفيقه القديم في السلاح يعيش غريبا بالفعل ، تصاحبه أشباح ماضية ، ذلك الماضي الذي راح يعيد إحياءه من جديد ،

فقد تطرق بالحديث إلى معارك مختلفة ، وشهداء أمجاد ، كما تحدث بنفس اللهجة عن حوادث مضحكة ـ فقد وقعت حوادث من هذا القبيل ـ لأنها جزء من ذلك الماضي ، ولابد أن نخلدها كغيرها من الذكريات .

في الصالون الذي يشكل قاعة الأكل ، وغرفة النوم ـ حيث بقيت الغرف الأخرى كما هي ، مغلقة بالمفتاح ـ كانت هناك أشياء عديدة لا تصلح لشيء بالمرة ، فالجهاز الثمين المكون من (راديو فونوغراف) الذي كان يتربع في إحدى الأركان كان عديم الجدوى ، تماما كتلك الثريا المزينة بالبلور التي كانت تتدلى من السقف ، اذ كان الوناس يستضيء بمصباح النفط . لم يكن هناك كهرباء ، فقد كان آخر ما فعله المعمر أنه عطل مجموعة المولد الكهربائي الضخم الذي كان يزود منزله بالنور .

كان تقدير مجيد لصديقه يزداد كبرا في نفسه ، فقد كان يغسل أواني الأكل بنفسه ، ويعد وجباته ، وينام فوق سرير قديم من أسرة المخيمات . وكان حدسه يوحي له بأنه في امكانه أن يعتمد على مساعدته ، وبأنهما سيكونان على اتفاق في الرأي كما كانا من قبل ، ولكنه لم يستطع ان يمنع نفسه من الشعور بعقدة ذنب صغيرة حينما يفكر أحيانا ، وهو يلج سياج المزرعة ، بأن الرئيس كان مشاركا في المؤامرة على التسيير السيء للمزرعة .

ـ أتدري في أي شيء مازلت أفكر ؟ قالها ، وكأنه يبرر بذلك لحظة الصمت الجديدة التي لاحظها . لقد قلت في

نفسي بأن الضمير المهني لا يكفي وحده في عمل كعملنا ، إذ لا بد من إعادة التفكير في أشياء كثيرة في الماضي لنتمكن من إشعال تلك الرغبة في نفوسنا ، أو تلك الشعلة الداخلية التي لا نستطيع بدونها أن نعمل بفعالية .

فأجابه الوناس .

ـ إن هذا لا يكفي دائما ، فحب المهنة عند البعض يخضع لطعم الربح ، أما عند البعض الآخر ، فإن نفس هذا الحب لا يثبت أمام الصعوبات .

فأردف مجيد :

ـ إنني أحب مهنتي وأعرف ـ مثل ما تعرف انت ، ويعرف كل أولئك الذين لا ينتظرون أن يأتيهم رزقهم إلا من الأرض ـ بأن أمل كل جزائري يكمن بحق في هذه الأرض . حينما يدرك الناس هذه الحقيقة الهامة فإنهم لن يقدموا بعدها على الذهاب للبحث عن خبزهم وراء البحر ، بالرغم من وجود مشاكل كبيرة في الوقت الراهن .

وهز الوناس رأسه . كان في دخيلة نفسه يكره حديث بعض المسؤولين بعباراتهم الموسومة بديماغوجية منافقه ، يصبونها بعناية من أعلى إحدى المنصات ، وتمنى أن لا يكون مجيد قد أصبح واحدا من هؤلاء المحدثين البارعين ، المتلهفين على المتع والامتيازات والذين تدينهم كلماتهم ذاتها ... لكن ملامح مجيد لم تكن تحمل أي أثر للنفاق ، كانت عاطفته صادقة حقا .

«هذه الصفوف التي لا نهاية لها من أشجار الكروم ، التي تغطي تقريبا كل المساحة الصالحة للزراعة ، لابد أن تترك مكانها لزراعة أكثر نفعا ..»

هكذا بدأ مجيد خطابه الذي ألقاه على نفسه أولا ، وكأنه يريد أن يتشبع أكثر بفكرة أن الجانب الأساسي من مهمته يتمثل في هذا العمل .

كان قد أقسم أن يكافح بكل ما أوتي من قوة من أجل أن يقنع السلطات بتبني فكرته ، سيكون ذلك أهم أعمال حياته ، وهو أن يقوم بعملية عكسية لما كان المالك السابق قد فعله . فأهل الناحية وسكان البلد جميعا أحوج ما يكونون إلى القمح الجيد من أرقى انواع الخمور .

وقدر أن هناك آلاف الهكتارات من الأرض الخصبة في الشمال ، يمكن أن تستغل بشكل أفضل وتأتي بمردود أكبر ، فقط لو اقتنعنا بقلع هذه النبتة الطفيلية التي أدخلها المحتل وزرعها لفائدته الخاصة . وحينها لن تكون هناك شجيرات تسمد ، ولا أغصان تشذب لأن غاصبي . 1830 . يكونون قد أصبحوا حينئذ جزء من الماضي .

ـ لقد قالوا عنك في المجلس كثيرا من الكلام الطيب ، ووافقوا بسهولة على برنامج التغيير .

ـ إنني سعيد جدا بذلك . أجابه مجيد ، وسأكون أكثر سعادة في المستقبل إذا استمروا على كلامهم .

وسارا صامتين لبعض لحظات متجهين نحو الطرف الآخر لأشجار الكروم التي كانا يسيران بمحاذاتها .

ـ أنت لا تجهل أن المساحة المستغلة هي في أغلب مجموعها منتجة أساسا للعنب ولدينا أيضا مزروعات أخرى كالخضر ، وثلاثة هكتارات من البطاطا ، ولكن عائداتها لا تستطيع أن تغطي حتى أجور العمال الدائمين. وإذا كنا قد استطعنا أن نعيش حتى الآن ـ عيشة قاسية على كل حال ـ فإن ذلك كان بفضل القروض ، وإنني أشك في أن نتمكن في يوم ما ولو من مجرد الوفاء بديوننا . أما قبو المزرعة فقد فاض بمخزون الخمر ، ولكن الفوائد مجمدة بسبب الأزمة التي تجتازها تجارة الخمور حاليا .

ـ والمعدات ؟ سأله مجيد ، وقد ارتسمت على جبهته تجاعيد عميقة تعكس قسطه الذي حمله بعد من هموم محدثه . والتي هي في واقع الأمر همومه شخصيا ، حيث أن مهمته كانت تتمثل في حل جميع المشاكل .

ـ العتاد غير صالح للاستعمال في ثلاثة أرباعه ، وستراه بعد قليل . فمن الجرارات الثلاثة التي وجدناها في المزرعة إثنان منها لا حديث عنها . فإذا كان ولا بد من إصلاحها ، فإن ذلك سيكلف مبلغا باهضا ، وقد توصلنا إلى إصلاح الجرار الثالث بقطع غيار مستعملة ، وفي بعض المرات كنا نصلحه بمجرد حبل حديدي . واعتبارا لهذا ، فإننا لا نستطيع أن نستعمله بصفة مستمرة وبمردود كامل . يضاف إلى هذا أن أطر العجلات هي في أمس

الحاجة إلى التغيير . أما المكائن الفلاحية الأخرى ، فقد خربها المعمر قبل رحيله ، ويبدو لي أنه من غير الممكن اعتبارها شيئا آخر سوى كونها كومة من (الخردة) التي لا تصلح لشيء والتي لابد لنا من جهة أخرى أن نتخلص مخزن العتاد منها .

واندفع الوناس في تعداد بدا وكأنه لن ينتهي أبدا منه ، راسما بذلك لوحة معتمة على أقل تقدير .

وحينما بلغ أخيرا إلى نهاية شكاواه ، كان المدير الجديد قد انتهى إلى اقتناع بأن كل شيء في المزرعة هو في واقع الأمر يحتاج إلى عناية . ولن يندهش بعد الآن من كون سابقيه لم يجدوا الشجاعة الكافية للاضطلاع بمهمة تبدو عسيرة للوهلة الأولى بل مقرفة .

ومع أن الرئيس كان قد أهمل الحديث عن عدد العمال ، فإن مجيد لم يستطع ـ حين سأله عن ذلك ـ أن يمنع نفسه من التعجب وهو يسمع رقما هو أبعد بكثير مما كان يتوقع .

ـ واحد واربعون عاملا مداوما ؟ ولكن هذا كثير جدا . إن مزرعة هذا وضعها جدير بها أن لا تستخدم إلا العمال الموسميين ، في انتظار ظرف أفضل ، لهذا يبدو لي أن الإجراء الأكثر استعجالا الذي يجب اتخاذه هو ان يخفض هذا العدد الى خمسة عشر عاملا ، أو عشرين على أكثر تقدير ، وهذا على الأقل سيخفف من مخاوفك في نهاية الشهر،ولا بد أن يرجع في هذا الموضوع إلى لجنة التسيير .

وواقع الأمر أن عدد العمال قد تجاوز بكثير العدد الذي كان في خدمة المالك القديم ، مما جعل الوناس يعترف قائلا بأن فترة الفوضى التي أعقبت بداية الاستقلال قد سمحت للعديد من سكان الجهة بأن يسجلوا أنفسهم كعمال دائمين ، ثم أضاف : ولكن الشكاوى المتكررة التي وجهتها بشأن هذا الموضوع إلى مصالحكم بقيت بلا جواب . وعلى أية حال فإن مبادرة تسريح العمال ليست مبادرة سهلة ، ولجنة التسيير ـ أو الجمعية العامة على الأصح ـ لا يمكن أن ترضى ببساطة بفصل نصف أعضائها بمحض إرادتها .

وأجابه مجيد :

ـ لا ، ولكن المزرعة لا تملك إمكانية الحفاظ على مثل هذا العدد من اليد العاملة حتى خلال أقصى نشاطها . وإنني أراهن على أن عددا كبيرا من العمال لا يقومون بشيء أكثر من تسجيل حضورهم . صحيح ان هذا أمر واقع ، ولكن إذا أردنا أن لا نضاعف من عدد المشاكل فحتما لا بد ان نضع لها نهـاية .

إن الحل الأمثل هو أن يأتي من العمال أنفسهم ، فيتخذون قرارا بالانسحاب . يجب أن يرتفع بهم الإحساس الوطني فوق المصالح الشخصية . ولكن مجيد لم يشأ أن يجاري نفسه في هذا الوهم ، فالأمور لن تمر بلا صدمات ، منذ اللحظة التي يتوجب فيها أن يطلب من الرجال التخلي عن مصدر رزق كانوا يظنون أنهم استقروا فيه بصفة نهائية . كان من الضروري أن يجد نص اتفاق

يرضي الجميع ، وواعد بالتفكير في ذلك بجدية ، بمجرد أن تعطي لجنة التسيير رأيها في الموضوع .

* * *

كرس الرجلان فترة ما بعد الظهر لمعاينة المزرعة، فقطعاها طولا وعرضا ، وزارا مخازن العتاد ، وعرجا على مكتب المحاسب ـ الذي كان بالمناسبة متغيبا ـ ثم اتجها الى الحقول .

وتابع مجيد شروح الوناس ـ التي ذكرته بمواقف عديدة ـ بكل اهتمام ، خصوصا أنه كان مثل زميله قد اشتغل من قبل في المزرعة .

وتذكر بعض الحكايات ، وخاصة ذلك الذعر الذي استولى على (بودار) في اليوم الذي استلم فيه رسالة مجهولة تتوعده بأن ضيعته ستلقى نفس المصير الذي لقيته الضيعات المجاورة .

ـ ضاقت به الدنيا في ذلك اليوم ، هل تتذكر كيف كان شديد الانتباه إزاءنا ؟ وهل تتذكر ضربات العصا على ظهر المالطي ؟

ـ في الحقيقة ، أنا افكر كيف استطاع أن يخلص من كل ذلك

وفي أثناء تقدمهما ، لاحظ مجيد أن الزراعةفي حالة من التسيب ، تشير إلى تخريب منظم ، إذ لم يكن الإهمال مقتصرا على وسائل الإنتاج وحدها ، فقد جاءت زيارة المزرعة في مجموعها لتؤكد أقوال الوناس ، ولكن مصاعب تسويق الخمر لا تبرر ترك الكروم على هذه الحال ، فقد كانت الأوتاد مقلوعة من أماكنها ، وكذلك شأن صفوف الأسلاك المعدنية المعدة لشد شجيرات

الكرمة ، وكانت مئات من الشجيرات ترقد على الأرض في بؤس ومهانـــة .

وقاطع مجيد حديث الوناس ملاحظا له بأن الكروم مثلها مثل القطع المخصصة للزراعات الأخرى تعاني من استخدام غير معقول ، وهو ما يضع خبرة المسؤولين السابقين موضع الشك أو يدل على احتقار العمال لزراعة لا تعود عليهم بالفائدة ؟ .

ـ الإثنان معا ، أجاب الوناس ، الإثنان ، فالمديرون لم يستطيعوا أبدا أن يحلوا عقد المشاكل ،، إلا أن للعمال قسطهم من المسؤولية . وقد كان لتأخير الرواتب تأثير سيء على معنويات العديد منهم . إن العدد الكبير من العمال الدائمين ـ أمام الكارثة الخفية ـ يؤكد هذه النظرية الأخيرة ، وقد أصبح بعث اهتمام العمال بعملهم أمرا مستعجلا . كما انه لم يعد في إمكانهم الرضى بالوعود لفترات طويلة .

وأنهى كلامه بعد أن شرح مشروعه للوناس قائلا :

ـ إذا قبل الحل على المستوى الأعلى فإن المزرعة «ستدور» بأقصى مردودها ، ابتداء من الصيف القادم .

ـ ان انتظار سنة يعتبر قليل الأهمية بالقياس الى الصبر الذي كنا قد تحلينا به من قبل .

على إثر هذه الكلمات ، قفل مجيد راجعا ، لأنه كان عليه أن يعود في الحافلة الأخيرة . كان يعلم أن عمله الحقيقي سيبدأ في الأيام القادمة ، ولن يهدأ باله إلا إذا وضع البرنامج المزمع

تطبيقه موضع التطبيق نهائيا ، وهو الذي سيخرج المزرعة من سباتها نهائيا .

ولكن هناك فكرة أخرى كانت قد سيطرت على فكره بعد «صديقه الوناس لن يستطيع أن يقدم له العون الذي يأمله» .

فعلا فقد ظهر من خلال حديثه بأنه غير مقتنع بالقدر الكافي بوظيفته كرئيس ، وتواضعه البالغ جعله يعتبر نفسه مجرد حارس .

صحيح أن هناك قانونا يمنعه من اتخاذ بعض المبادرات ولكنه كان رئيسا على أية حال ، وكان بالإمكان إنجاز بعض الأعمال بمجرد تدخل بسيط من طرفه ، ولكن الوناس اكتفى بضبط تصرفاته حسب مزاج كل مدير ، عوض أن يفرض نفسه كعضو في المجموعة ، وكممثل حقيقي للعمال .

الفصـــل الرابـــع

كان مجيد قد نسي هذا الاحساس بالسعادة الذي نحسه ونحن نتنفس هواء الصباح في الريف . كان في هذا اليوم الذي صحا فيه مبكرا جدا ، يقف وسط الساحة ويستنشق الهواء بملء رئتيه ، ويتأمل الأفق .

كان مجيد يظن نفسه أول من صحا من النوم ، ولكنه كان مخطئا في ذلك ، فقد كان الوناس عائدا في هذا الوقت بخطى بطيئة ، من جولة قام بها عبر الحقول . فبادره بلهجة ودية :

ـ إذن فأنت لا تنام يا سي الوناس ،

ـ في مثل سني ، أنت تعلم ، لا نحتاج إلا إلى قليل من النوم ، ثم ضع في بالك أن أفضل فترات النوم هي أثناء هذه الساعة التي مضت تقريبا . ثم اقترح عليه وهو يتجه به نحو المنظرة :

ـ تعال تشرب معي قهوة .

وتحدثا عن برنامج عمل اليوم ، ولم يقبل مجيد بمراجعة حسابات المزرعة إلا مكرها ، فانتهى إلى القول .

ـ ليكن ، حيث أنه عمل لا بد منه ولكني بصراحة ، كنت أفضل أن يعين لهذه المهمة خبير في المحاسبة ، فأنا لست واثقا من نفسي ، بأنه في استطاعتي أن أكتشف أخطاء ، وخاصة إذا ارتكبت بطريقة مقصودة كما تدعي .

ـ أنا لا أدعي ، وستتحقق من ذلك في النظرة الأولى ، فالولد ليس محاسبا مؤهلا ، وشؤون المزرعة ليست على قدر كبير من الأهمية حتى يكون في الإمكان تمويه التجاوزات بمهارة .

كان لا بد أن ينتظرا الساعة التاسعة ليريا المحاسب أخيرا يخرج منكمشا على نفسه من باب الجناح الذي تحتله أسرته .

كان طويلا ، وأعضاؤه غير متناسبة مع جسمه ، وكأنه توقف عن النمو عند سن البلوغ ، يعلوه وجه ناتيء العظام ، يحيط به شعر غزير ضارب إلى الحمرة ، ينسدل على كتفين هزيلين ، مما جعله يشبه إلى حد ما فتاة . وبالمناسبة ، فقد كان خجول المظهر ، وحركاته غير متناسقة ، خصوصا حينما أبصر الرجلين اللذين كانا في انتظاره . صافح مجيد ولكنه لم يواجهه بنظرة أبدا ، فقد أصبح بعد ، كمن يخفي سرا وشعر أنه على وشك أن يكشف أمره .

كان مجيد لا يعرف في المحاسبة إلا العمليات الأولية البسيطة ، ومع ذلك فقد وجد أن محاسب المزرعة الذي كان يحمل لقبا بذلك ، والذي لم يكن مستواه الثقافي رفيعا ، وجد أنه لا يعرف شيئا أكثر منه يستحق الذكر ، لقد سمحت له فترة تكوين

سريع بالدخول إلى هذه الوظيفة ، فهو في حقيقة الأمر موظف مكتب بالمعنى الضيق جدا ، عين بصفة خاصة لتحرير المراسلات ولحفظ مجرد سجل يحتوي على مداخيل المزرعة ومصاريفها ، ومن جهة أخرى ، فإن سجلا بالشكل الذي كان عليه سجل المزرعة ، لو اطلع عليه خبير ، فإنه بالتأكيد سيمنع المحاسب الغر من تعاطي الأرقام الى الأبد .

كانت الأخطاء بينة بقدر ما كانت تلك الحيل التي استعملت من أجل تمرير وإخفاء العمليات المخالفة غير متقنة .

منذ أن أخرج الوثائق لم ينبس بكلمة ، كان واقفا على يمين مجيد الذي كان جالسا في مكانه خلف المكتب الصغير الذي كان يحمل على متنه آلة راقنة . وكان ينظر ساهيا إلى وريقات الدفتر وهي تقلب الواحدة بعد الأخرى .

كان مجيد يتحلى بالصبر ، فكان يتوقف طويلا عند كل صفحة ، ولكنه لم يطرح أي سؤال ، وبين الحين والآخر كان يهز رأسه في حركة ذات معنى ، ويسجل بعض الملاحظات في دفتر ، ويقوم بسرعة بإجراء عملية حسابية عمودية . مرة واحدة همهم مجيد بقوله :

«دع عنك ، دع ... سأفهم لوحدي بعد قليل» موجها كلامه إلى الشاب الذي وضع سبابته في إحدى المرات على الدفتر ، متمتما ببعض التوضيح .

وتلاشى الوناس من المكان ، ولكن العملية بالنسبة لمجيد أخذت منه كل الصبيحة . وعند الظهر ، وإحساسا منه بأن المحاسب على وشك الانهيار ، ترك كل شيء في مكانه ، وطلب مفتاح المكتب ، ثم خرج مصطحبا الشاب معه ، ولم يكن إلى حد الآن قد وجه إليه أية ملاحظة ، واكتفى فقط بقوله بعد أن أغلق الباب بالمفتاح «سنتقابل بعد ساعة» .

ـ لم يسبق لأي مراقب أن وطئت قدمه أرض المزرعة منذ أن تأسست ، شيء لا يصدق .

ـ بخصوص الأرقام ، لا يخفى عليك أنني لا أعرف فيها شيئا ، فهي من اختصاصات المدير ، وكل الذين مروا هنا لم يروا أية فائدة في أن يكلفوا أنفسهم بمراجعة الحسابات ، ولم يكن من مهمتي أن أقترح عليهم ذلك .

ـ هنا بالضبط كنت مخطئا ياسي الوناس ، وعليك يقع قسط كبير من المسؤولية ، فمراجعة الحسابات شيء هام ، وأنت تعلم أنه في حالة وقوع اختلاس ستكون معرضا لعقوبة من نوع العقوبة التي ستلحق بالمدير .

ـ إنه يبدو لي في الوقت الراهن بأن الحسابات مزورة إلى حد جعلني أتساءل فيما إذا كان من غير المفيد أن نأتي بخبير من مصلحة التعاضد ليطلع عليها .

ـ بماذا أجيبك على هذا ؟ همهم الوناس وهو يهز كتفيه في حركة مستسلمة .... اعمل ما تراه أفضل وكفى ، ولا ينبغي

أن تمنعك صداقتنا من القيام بواجبك ، فأنا مستعد أن أدفع ثمن أخطائي إذا كنت أخطأت ، حتى ولو عن غير قصد .

حينما رفع مجيد رأسه من النوم كانت فترة ما بعد الظهيرة على وشك الانتهاء ، قابل عز الدين ـ وهو اسم المحاسب ـ بوجهه الذي كانت ملامحه قد تغيرت بسبب القلق.قال له :

ـ الآن أريد منك بعض التوضيحات ... يوجد هنا أربعة عمال يقبض كل واحد منهم مرة ونصف الأجر المتوسط للعمال الدائمين ، كما يوجد آخرون لم يتسلموا سوى تسبيقات ضئيلة . كما أرى أيضا سلفات منحت لنفس هؤلاء العمال ، ولا داعي إلى القول بأن المزرعة لم تحصل في الواقع على مداخيل مالية سوى بعض المساعدات التي لا أهمية لها ، وعلى مقدار ضئيل من عائدات الخمور ، وزيادة على هذا ...

لم يجد عز الدين ما يرد به . بقي مغروسا في مكانه بالقرب من أريكة مجيد التي كان قد تركها ، وراح يقطع أرض القاعة ذهابا وإيابا ، وبيده مسوداته التي كتبها ، وهو يرتجف من شـدة الغيظ .

كان لا بد له من اتخاذ قرار ، ولكنه لحد الآن ما يزال مترددا ترددا واضحا ، فمعاقبته للموظف الناقص الذمة ومعه شركاؤه ـ لأن أولئك الذين حاباهم لن يكونوا سوى شركائه ـ سيقوده إلى وضع سي الوناس موضع الاتهام وهو صديقه ورفيقه في الكفاح ، ولكن العفو من جهة أخرى غير وارد ، إذ ليس له أية صفة تخول له ذلك ، وأدار في ذهنه كل هذا ، وأعطى نفسه

قدرا كبيرا من الوقت لاتخاذ قراره ، ثم قال فجأة وهو بحدج المحاسب الغر الذي كان ميتا أكثر منه حيا :

ـ إن ما فعلته هنا تجاوز خطير في نظر القانون ، بالإضافة إلى كون هذا الفعل لا يليق بعامل واع ، والأمر ليس من اختصاصي حتى لو أردت أن أحكم عليه ، فهو من اختصاص المحاكم . وماذا ستفعل أنت لو كنت مكاني ؟ .

بقي عز الدين مسبل العينين ، كانت حالته تذكر بطفل أخذ بذنبه أكثر مما تذكر بمحتال اقتنع بجرمه . وحينما استطاع أن يرفع رأسه بعد أن بذل جهدا فوق طاقة البشر ، لشدة إحساسه بالنظرة الحادة التي كان المدير يسلطها عليه ، أحس مجيد بغتة بأنه أعزل ، فقد كان وجه الفتى متغير الملامح وعيناه الحمراوان مبللتين بالدموع ، قال مهمهما بصوت غير مسموع تقريبا :

ـ لقد هددوني ، فهم أقوى مني ، وقد أقسموا بأنهم سيعملون على طردي اذا لم أدفع لهم ، والله شاهد أنني لم آخذ شيئا لنفسي .

ـ ولماذا لم تكشف عن أي شيء من هذا لرئيس المزرعة أو للمديرين السابقين ؟

ـ لم يسبق أبدا أن وطئت قدم أي مدير أرض هذا المكتب . أما الرئيس فلم يكن في إمكانه أن يفهم ، ولو فعلت لكان قد أخرجني أنا وعائلتي من السكن بتأثير من الآخرين . فقال مجيد وقد عادت لهجته إلى نعومتها .

ـ أبدا ، ما كان الوناس ليفعل ذلك ، زد على هذا ان ذلك ربما سيكون أفضل لك من الذهاب إلى السجن .

على العموم لم يكن المال المختلس مبلغا هاما ، فقرر مجيد أن لا يذيع المسألة ، ولا أن يقدمها للمتابعة القضائية ، بشرط أن يتعهد المذنبون بتسديد ما عليهم بشكل مشرف . ثم قال بصوت متأثر قبل أن يغادر المكتب .

ـ عليك أن تعرف يا عزالدين أن الذي دفعني الى الرأفة ليست دموعك ، وأن رجلا جديرا بهذا الإسم لا يبكي مهما جرى له ، ولكني أسمع صراخ طفل رضيع خلف هذا الحاجز وأظن أنه ولدك ، وعليك أن تفكر فيه أنت نفسك في المستقبل حينما تحدثك نفسك بارتكاب خطأ من هذا النوع ، أما الباقي ، فعليك أن تستدعي غدا صباحا ، العمال الأربعة ، فسيكون لي حديث معهم .

وقام عزالدين بالمهمة أحسن قيام إلى درجة أنه ذهب في نفس الليلة إلى مسكن كل واحد من شركائه ، ودعاهم إلى الحضور باكرا صباح الغد ، قبل أن يبدأ العمّال الآخرون عملهم لكي لا تعرف القضية من طرف الجميع .

وتعهدو كتابيا في اجتماعهم بالمكتب أن يردوا جميع المبالغ التي قبضوها بغير حق ، عن طريق الحسومات المتعددة ، تقتطع من جرايتهم الشهرية .

وإذا كانوا قد تنفسوا الصعداء لخروجهم من المأزق بسلام ، فإن هناك في نفس الوقت واحدا منهم رفض حتى أن يعترف بخطورة جرمه ، إذ لا يمكن حسب نظره أن يعد سارقا في مزرعة أصبحت لهم بفضل قرار رسمي . أمضى مكرها . وأقسم في سره أنه سيجعل ثمن إهانته غاليا . ولم يتوان (الصادق) فشرع في حملة تشهير منظمة ضد كل قرارات المدير. كان يقول «لن أرتاح إلا حينما يغادر هذه المزرعة ، ومن تلقاء نفسه» .

* * *

كان مجيد متخوفا من الاجتماع الذي سيعقده مع ممثلي العمال ، فالمقترحات التي سيعرضها عليهم كانت حساسة للغاية ، ولم يكن متأكدا أن محاوريه سيشاركونه آراءه .

سجل حضوره في هذا اليوم في كل مكان ، في حقل الكروم ، وفي ورشة التصليح حيث كان إثنان من العمال منكبين حول جرار في نهاية عمره ، يحاولان إصلاحه ، إلى أن وصل إلى حدود الأرض البور ، حيث فاجأ بعضهم هناك منهمكين في شوط ممتع من «الروندة» .

وفضل الانسحاب أمام المرأة التي وجهت له سيلا من الشتائم ، احتجاجا على الملاحظة التي قدمها لها ، بالرغم من أنه وجه إليها الحديث بلهجة مهذبة ، فقد كانت ترعى أغنامها في ارض تابعة للمزرعة ، وقد عرف فيما بعد بأنها زوجة أحد العمال الدائمين ، وكان منزله بالذات تابعا للمزرعة .

كان لهذه الجولة التفقدية من المزايا أنه تأكد على الأقل من فكرته بأن المزرعة رقم /5/ تستطيع أن تستغني عن نصف عمالها .

في آخر النهار ، كانوا ثمانية يجلسون إلى طاولة خشنة ـ لكرة الطاولة ـ في غرفة بالطابق السفلي .

كان سي الوناس يترأس الجلسة ، وكانت لجنة التسيير تنتظر أن يعرض المدير الجديد برنامج عمله ، ولكن لم يكن أي واحد منهم يتصور شيئا آخر سوى أن أفكاره ستكون بالضرورة من جنس أفكار كل الذين سبقوه ، وكلما مضى مجيد في فرز شلة المشاكل ، راح أعضاء لجنة التسيير يهزون رؤوسهم : ماذا ؟ إذا كان المدير الجديد يعتقد أنه يعلمهم شيئا ، فإن السامعين على معرفة بنتائج تحرياته المقلقة المتعلقة بوضعية الزراعة ، وقاطعه أحد الأعضاء بصفة جافية بلغت إلى حد الوقاحة :

«اسمح لي أيها الأخ ، إننا ننتظر منك خاصة ، أن تقول لنا فيما إذا كانت أجورنا للشهور الماضية ستدفع لنا في القريب ، أما بخصوص الوضعية التي اكتشفتها هنا ، فأنت تدرك جيدا بأننا نعرفها أحسن منك» .

ـ نعم ، أضاف آخر ، إنه الوقت المناسب من أجل أن ترفع الدولة الحجر على الدراهم إذا أرادوا أن لا نترك المزرعة جميعا ، ونذهب للعمل عند الملاك الخواص

واستأنف الأول قائلا :

ـ هم على الأقل يدفعون عند نهاية كل يوم عمل ..

وقال آخر ساخرا :

ـ حينما يجدون أناسا يعملون عندهم ، لأن اليد العاملة الفلاحية لم تعد تجوب الشوارع منذ أن واعدوا الفقراء بتقسيم أرض الأغنياء عليهم ...

فقال أحد المتشائمين ملخصا :

ـ إن للفقراء فائضا من الوقت كي يموتوا جوعا قبل أن يتحقق هذا الإرث .

فعقب مجيد في التو ، وقد أحس بأن الحديث على وشك أن يتحول إلى موضوعات موزعة وغير مترابطة :

ـ على أية حال ، إذا حصل واستفادوا ذات يوم من هذا الإرث ، فإنني لا أود أن أراهم يفعلون به ما تفعلون أنتم بما لديكم .

وساد الصمت . فاستطاع أن يواصل حديثه ، مستعرضا إياه بخصوص كل موضوع ، بشكل يثير في الحاضرين بداية حل من الحلول . وحين لاحظ انعدام رد الفعل لدى السامعين ، ما عدا بعض المواقف المظهرية البحتة ، انتقل أخيرا الى عرض الحلول التي كان قد حدث بها سي الوناس . وختم حديثه بقوله :

ـ إن الوقت لم يفت بعد للانتقال إلى الفعل . قال ذلك وهو ينقل نظره من هذا إلى ذاك ، في الوجوه الجامدة من اليأس

الذي كانت تواجهه ، ولكن هذه اللامبالاة لم تكن سوى رد فعل أولي ستعقبه الدهشة ، ثم يتحول الى غضب .

قال أحدهم متعجبا :

ـ إن ما تقترحه هو في مجمله ضد مباديء التسيير الذاتي نفسها ، وإن الغرض من وجود هذه المزرعة هو أن تضمن العيش للذين يخدمونها ...

فقاطعه مجيد :

ـ للذين يخدمونها ، نعم ، وبالمناسبة فإن العدد الذي يستطيع أن يدعي ذلك منكم ليس بكثير .

ـ أيها الأخ ، ليس بتنحية الأغلبية من العمال الدائمين سيتحسن وضعنا .

ـ بلى إن الأمر كذلك ، إذ حينما يستبعد هذا الحمل ـ وهو من جهة أخرى إجراء مؤقت ـ فإن الإنتاج سيتنفس ، وحينها لن تكون هناك عائدات لضمان العيش فقط ، ولكن ستكون هناك أرباح حقيقية .

فعاد العامل إلى الهجوم ، موجها كلامه للرئيس :

ـ خذ حذرك يا سي الوناس ، لا تكن متآمرا معه في اتخاذ مثل هذا الإجراء فهو ضد القانون . زد على هذا ، بماذا سنعيش قبل أن تعوض الكروم بزراعة أخرى ؟

فقال الوناس بهدوء :

ـ لا تفقدوا رشدكم ، فسي مجيد ليس طفلا ، وقد ناقشنا كل هذا مناقشة طويلة قبل أن يتحدث به إليكم .

فأولا وقبل كل شيء ، إن الأرض غير قليلة من أجل غرس زراعة معوضة . فهناك رقع عديدة من الأرض غير مزروعة ، ولا أحد بالتأكيد قد فكر في الفوائد المهذورة التي تمثلها ؛ فقد جعلوا منها مراعي للأغنام في الوقت الحاضر ، وفي الإمكان دائما أن نغرس فيها الخضر أثناء الانتظار ...

ان هذا العمل الإضافي لن يبعث فينا الفشل كما أتمنى ... أضاف ذلك ساخرا وهو يشير من طرف خفي إلى كسل البعض .

ـ الخضر ... وتعتقد أنك تستطيع أن تواجه المصاريف العامة بواسطة عائدات بضعة قناطير من البطاطا أو الطماطم ؟!

كان الرجل يبتسم ويمسح على شاربه وقد بدا واضحا عليه أنه وجد تسلية في سذاجة المسؤول ، بينما كان الآخرون يبتسمون وينتظرون جوابا .

وكان مجيد يجهد نفسه في السيطرة على نفاد صبره ، ولكن طبقات صوته كانت تفلت منه ، وتظهر ثورة أعصابه .

ـ بضعة قناطير إذا بقيت طرق العمل عندكم كما هي . إذ بالسماد الجيد وبقليل من التضحية من جانبكم ، فإن هذه الأرض تستطيع أن تنتج أطنانا من هذه البواكير ، والتي يقل وجودها في الوقت الحاضر في السوق . وأنتم تعرفون مثلي بأن ثمن بعض الخضر له قيمة معتبرة .

كان الرجل الأشنب ، ما يزال يبتسم وينظر إلى زملائه الواحد بعد الآخر وكأنه يريد أن يتخذ منهم شهودا ، وكانت ملامحه كأنها توحي لهم بالقول «حقيقة ، أهل المدينة هؤلاء لا يمتلكون الإحساس بالحقائق» .

– أيها الأخ ، عليك أن تعرف ، أنت يامن تعرف كل شيء ، بأنه من أجل إنبات الخضر لابد من السماد ، ولكن لابد أيضا من الماء . لعلنا سنذهب للبحث عنه في الواد ؟

فتدخل الوناس :

– سي مجيد عاين البئر ، وسيبذل جهده ليحصل لنا على محرك ومضخة في وقت قريب .

وطلب الكلمة عامل آخر أكثر اهتماما بآداب الاجتماعات وذلك برفع يده .

– إن الدولة لن تسمح أبدا بقلع الكروم ياسي مجيد ، إذ يلزم سنوات من أجل الحصول على كرم من النوع الموجود عندنا .

– إنه من غير اللازم أن يكون لديك بهذا القدر ، بحيث تتركه للضياع وتسلمه للحشرات الطفيلية ولماعز السكان المجاورين .

وتنبه مجيد الى أنه قال كلاما كثيرا فمرر راحتي يديه على وجهه ، وواصل كلامه بصوت خفيض :

– إخواني إن الدولة حينما عينتني هنا ، إنما قبل كل شيء من أجل أن أتخذ إجراءات تتفق مع مصالح الجميع . إنه في استطاعتنا دوما أن نتأنى وأن نختار حلولا للانتظار طبعا ، ولكن

لن يكون ذلك أبدا إلا بصفة مؤقتة إذ لا بد من الوصول إلى أصل الداء ، لأنه ، وفي جميع الحالات ، لن تستطيع المزرعة /5/ أن تستمر سوى سنوات قليلة في السير على هذا المنوال إلى حيث تشاء لها الصدف ، فأنتم في الوقت الراهن تستنفدون عائداتها دون التفكير في تجديد مصدرها ، معرضين بذلك مستقبلكم للضرر أنتم بالذات فوق هذه الأرض . هذا دون أن نضع في الحسبان أن إهمالكم لن يضير أحدا سواكم ...

سوف ننتزع الكروم بمجرد أن أحصل على ترخيص بذلك من رؤسائي ، وبعدها سنحلل التربة من أجل أن نختار أنواعا أخرى من الزراعة ، فإذا جاءت النتائج مطابقة لما نتوقع ، فإن المزرعة ستتحول في ظرف قصير الى تزويد الأهراء بالحبوب عوض الأقبية بالخمور .

وأحس مجيد بانطباع سيء في نفسه ، لأن مثل هذا الحديث كان سابقا لأوانه ، فالظرف كان يتطلب اتخاذ قرار ، والاعمال وحدها هي التي تستطيع أن تغير الوضعية لصالحه . وأشار إلى سي الوناس ، الذي قام من مكانه .

ـ سنعمل الآن على إجراء القرعة. قال ذلك وهو يخرج من جيبه رزمة من القصاصات تحمل كل واحدة اسم عامل دائم ، وكانوا في أغلبهم يسكنون النواحي القريبة . وأعلن سي الوناس حينما انتهت القرعة .

«رفعت الجلسة . والعمال الذين ذكرت أسماءهم لن يتركوا للبطالة ، لا خوف من ذلك ، فقد اتفقنا مع مسؤولي المزارع

الأربعة المحيطة. بنا على أن يوفروا لهم عملا ، إلى أن تصبح المزرعة / 5 / في وضعيّة تسمح لها بضمان راتب منتظم لهم .

الفصـــل الخـــامس

أثار الاجتماع تعاليق شغلت الجميع ، سواء وسط الأعضاء المنتخبين أو بين مجموعة العمال ، حيث أصر بعضهم على التمسك بوعده بعدم الرضوخ أبدا بالذهاب للعمل في مكان آخر ، لولا حجج الوناس التي أعادتهم إلى الصواب .

«ان الطموح الذي لا حدود له ، هو مصدر إضافي للصعاب التي لا نستطيع تجاوزها ، فنسقط سقوطا مجهول العواقب ، تكون نتائجه وخيمة بقدر تمادينا فيه» .

كان هذا الموضوع حديث كل الأماكن العامة لعدم وجود إمكانيات أخرى لمعارضة مشروع مجيد ، أما هو ففي غفلة من الجميع راح ينفذه .

«عمل لا فخر فيه ، عمل كواليس ولكنه أكثر ضرورة فليس بكثرة الاجتماعات يا صاحبي نسوي المشاكل ، ولا بالمناقشات التي لا تنتهي حيث للكل كلمته التي يقولها ، ويعتقد أنه في ذلك

على صواب . فلنعمل أولا ، ثم نتباهى بعد ذلك حينما يكون عملنا قد أعطى ثماره» .

وكان الوناس يوافق لمجرد الصداقة ، فقد قرر أن يجاري مجيد لأنه فقط كان قد تعرف عليه في ظروف صعبة ، أما في دخيلة نفسه ، فلم يكن هو أيضا يصدق بأن الوضع سيتحسن .

مزرعة بجراراتها وعتادها الفلاحي ، ومحاصيلها في كل سنة لإعالة أسر كثيرة ، وهكتارات من القمح مكان هذا الامتداد المهمل والعديم الفائدة ؟ . بدا له كل هذا في الواقع نوعا من السراب .

إن عمل سنوات لن يكون كافيا ... لعل أبناءنا وأحفادنا سيستفيدون من ذلك ، كما سيكون الشأن في بقية الأشياء الأخرى ، فالاستقلال شيء جميل ، ولكن المشاكل الاقتصادية التي يجرها خلفه ليست من ذلك النوع الذي يحل في وقت قصير ...

ولكن تفاؤل مجيد إذا هو لم يتطابق مع ما في نفس صديقه ، فهو على الأقل قد حد من تشكك هذا الأخير .

كانت هناك مشاكل ، ولم تكن هينة ، ولكن مجيد كان يقدرها بكل موضوعية ، ويحللها دون أن يقع في الوهم ، متجاهلا - عن وعي - لمدلولها السياسي ، وكذلك للقوانين الإدارية الواضحة التي تقوم عليها المؤسسة . كان ينظر ببساطة إلى تلك الاجراءات على أنها مفيدة ، واضعا في اعتباره العقبة الاقتصادية الصعبة التي تشمل مجموع البلاد . وهو من جهته

لا يدعي أي شيء آخر سوى أن يعمل بروحه وعقله من أجل أن يكون همزة وصل بين العمال من جهة والجهاز الإداري من جهة ثانية ، ذلك الجهاز الذي ما يزال ثقيلا ، وغير متلائم تماما مع الواقع الجديد . قال للوناس «لقد عزمت أن أتصرف كما لو أنني أدافع عن مصالحي الخاصة» .

* * *

تحت عمامة سميكة حائلة الصفرة ، بدا وجه رمضان وقد ركبه الهم . فمنذ أن أخبروه بنقله مؤقتا لمزرعة (عيشوني) وقلقه يزداد . كان في أول الأمر قد أرعد وأزبد وأقسم بأغلظ الإيمان بأنه لن يلتحق بعمله الجديد . هل سيموت جوعا مع أهله ؟ ولكنه الآن وقدثبت له أن هناك العديد من العمال الآخرين الذين أصابتهم القرعة هم في مثل وضعيته ، فضل أن يسكت ، ثم نكس رأسه مستسلما ومضى .

صحيح أنه لا بد له ابتداء من اليوم أن يقطع عدة كيلو مترات إضافية ، فقد شاء له حظه السيء أن يعين في أبعد مزرعة عن القرية ، ولكن ليست هذه هي الحقيقة الوحيدة، فقد قال محدثا نفسه بأنهم التجأوا بهذا إلى أسهل الطرق ليسلموه إلى البطالة دون ان يقولوا له ذلك صراحة .

كان رمضان في هذا الوقت سائرا برفقة عامل آخر . كان عليهما أن يتقدما إلى العمل بعد الظهر في مزرعة عيشوني .

ـ هذا طرد بكل وضوح وبساطة ، ذلك كل ما في الأمر ... وبأي حق يسمح لنفسه بمثل هذا مع خمسة وعشرين عاملا أنا أكبرهم ؟ لقد كنت أول من وضع قدميه فوق هذه الأراضي بعد رحيل العمر ، وقد شاركت في ترحيل (بودار) وأمثاله ، وأنا الآن لا أنام في بعض الليالي من الآلام الجسمية التي نتجت عن ثلاثة شهور من التعذيب ...

وأجابه مرافقه الذي كان أصغر منه بكثير ، وكان يمسك بمقود دراجة قديمة بلا إطارات للصيانة من الطين ، ولا ملحقات ، تمكنه من الذهاب يوميا إلى عمله ، وكان يجرها إلى جانبه .

ـ لقد أكد لنا أنه خلال أشهر معدودة على أكثر تقدير ، سنستأنف عملنا هنا ، وأعتقد أنه صاحب كلمة ، فليس هناك ما يقلق .

ولكن رمضان هز رأسه في ارتياب شديد :

ـ ليس هناك ما يقلق ... إن لي أسرة أعيلها ، ولا أستطيع أن أصدق كلام شخص بيروقراطي .

ـ أعتقد أنا أنه خالص النية .

ـ لأنك لست في نفس الوضعية ، فأنت مازلت صغير السن ، وتستطيع دائما أن تجد لك عملا آخر حينما يقولون لنا هناك بأنه لا يوجد لنا سوى يومي عمل في الأسبوع مدفوعي الأجـر .

ـ لن يقولوا لنا ذلك لأن المزرعة أكبر بكثير من المزرعة (5) وهم في حاجة إلى سواعد .

ـ سترى بأننا سنعتبر كعمال موسميين وليس لنا أي حق في المزرعة الأخرى ، وسيجعلوننا نفهم ذلك بسرعة .

ـ أنا أعرف على الخصوص شيئا . وهو أنه في المزرعة (5) كما في غيرها من مزارع وطننا ، لدينا الحق في حصتنا كعمال وهناك أناس أكثر منا معرفة بالأمور أكدوا لنا ذلك .

فتوقف رمضان ، وغرس نظرة في عيني مرافقه :

ـ أنت تعيد بالضبط ما قاله «هو» ولكن هذه سياسة ، والسياسة لم يسبق لنا أن فهمنا فيها شيئا أبدا ، فنحن سذج . ونصدق كل ما يقال لنا من أعلى المنصة . إنه من السهل أن نعد حينما نكون على غير معرفة بالذين يستمعون وينتظرون ، ومجيد واعدنا كغيره ، وكغيره لن يستطيع أن يفي بكلامه ، ولكنه هو حينما يرى أن الأمور قد انحدرت نحو الأسوأ ، وحينما تكون المزرعة رقم (5) قد مصت نهائيا ، فإنه في استطاعته أن يلتحق بمكتبه بهدوء ، ويصرح بأنه لم يدخر أي جهد ، ولكن لا فائدة ترجى ، ويستمر في قبض أجرة في آخر كل شهر ، تستطيع أن تعيش بها عاما ...

وراح رمضان يهز رأسه وقد ارتسمت على وجهه المخدد مسحة من التشاؤم ، وغارت عيناه في محجريهما ، وبدا في حالة من الشرود بعثت الخوف في نفس مرافقه ، ولكن هذا الأخير

تمالك نفسه بسرعة ثم واصل سيره بصفة آلية وقد ركز نظره على الشيخ وهو يقول :

ـ إن هذا الذي تقوله لا معنى له ، إذ ليس من حقنا أن نيأس ، لقد قمنا بالثورة ، وكافحنا من أجل مجتمع تسود المساواة جميع أفراده ، ولن يضيع تضامن الحرب في زمن السلم الذي أظلنا ، بل بالعكس ، فكل واحد منا الآن يدرك ما ينبغي عليه تجاه الآخرين ، والواجب يذكره بذلك عند اللزوم .

ـ ولماذا لم تذكر مجيد بهذا إذن ؟ إنك تتحدث بمثل حديثه تماما ، ولم تفكر بأن العالم قد تغير تغيرا كبيرا خلال سنوات ، صحيح لقد كان الناس متحدين أثناء الحرب ، فقد كان لهم عدو مشترك ، ولكن الآن «كم أشتهى ضربك يا أخي» وأنت تعرف هذا المثل ؟ فليس هناك خطر الآن ، وكل واحد يعمل لمصلحته الأمر هكذا في كل المجتمعات الإنسانية أو الحيوانية «القوي يأكل الضعيف» .

ـ يبدو لي يا سي رمضان بأنك لست في كامل قواك العقلية ، فأنت تتحدث كشخص انهزامي .

ـ انهزامي ؟ هه ... ولكن يا صغيري من يسمعك يقول عنك بأن قدميك لم تطأ قط أرضا خارج قريتك . انظر قليلا إلى ما يجري حولك ... حينما تمر في الطريق واحدة من تلك السيارات الفاخرة التي يتساءل الناس عنها من أين جاءت وإلى أين تمضي بهذه السرعة . هل تعتقد أن راكبيها يستطيعون أن يفهموا

قولك هذا ، أنت يا من يتقوس ظهرك ، وتتصبب عرقا غزيرا كي تصعد العقبة جاثما فوق دراجتك القديمة ؟ صدقني ، ستبقى هكذا تختض في حفر المنحدر ، وتبقى مؤخرتك تعاني من رضوض الجلد الخشن لمقعد دراجتك ، دون أن يتذكر ولو واحد منهم فقط ، أنه لمحك لمدة ثانية . هذه هي الحقيقة .

فصاح فيه الشاب وقد خرج عن طوره :

ـ أنت لا تعني بالتأكيد ما تقول ، إن أفكارا مثل أفكارك لا ينبغي أن تقال ، إنها تؤذي من يتفوه بها ، بقدر ما تؤذي من يسمعها . ليس هناك أقوياء ولا ضعفاء ، هناك فقط رجال . أما أولئك الذين تتحدث عنهم فهم أقلية وستتخلص منهم الثورة في الوقت المناسب .

ـ الثورة ، الثورة ... في أي شيء استطاعت أن تحسن أحوالنا حتى الآن ؟ .. يقولون لنا عليكم بالانتظار والصبر ، ولكن إلى متى ؟ .

واستمر رمضان بنفس اللهجة المليئة بالحسرة وخيبة الأمل ، فتحدث عن ظلم الرجال ، وانعدام الضمير ، وعن أنانية أولئك الذين حبتهم الحياة ، أو على الأصح «أولئك الذين ينتهزون ثمرة كفاح لم يشاركوا فيه إلا من بعيد ... كانوا مجرد متفرجين ينتظرون» وتحدث عن أجرته ، وعن أطفاله الذين لا يذهبون إلى المدرسة ، وقد عجز عن أن يوفر لهم ما يشبع به بطونهم . ورسم لوحة معتمة الجوانب للمستقبل بقوله :

«إذا استمرت الأمور على هذا المنوال ، فإن أبناء أحفادنا هم الذين سيستفيدون من نعم الاستقلال» .

وكان الآخر قد عقد النية على أن يتركه يشفي غليله دون أن يقاطعه ، شاعرا بأنه في حاجة الى من يقاسمه همومه ، ومقتنعا بأن ليس هناك أية حجة يمكن أن تضع نهاية لأزمته ، التي ستزول من تلقاء نفسها بمجرد ان تكون (الدمالة) قد أفرغت .

وحينما صمت رمضان أخيرا ، همس له ببساطة «تشجع وسترى أن الغد سيكون أفضل من الأمس» . وأحس بالارتياح حين سمع رمضان يتمتم .

«إن شاء الله ... مهما يكن ، فلعل المدير الجديد غير سيء» .

وتمنى الشاب في دخيلة نفسه أن لا تكون هيئة مجيد المتواضعة ولباسه البسيط ، وشاشيته البيضاء التي يضعها على قمة رأسه على طريقة الفلاحين ، أن لا تكون مجرد مظاهر موجهة لخداع الفلاحين ، وجعلهم يعتقدون خطأ أنه واحد منهم .

في الغد ، شرعا في العمل كلاهما ، في مزرعة «سيحلية» وارتفعت معنويات رمضان ارتفاعا معتبرا ، خصوصا بعد أن أعلموه بوجود عمل يزيد عما كان يعتقد في الأول ، وبأنه سيعمل كامل الوقت ولمدة ثلاثة شهور ، فاطمأنت نفسه .

الفصــــل السادس

«يا صديقي المسكين ، لقد أثرت شفقتي ، فلسانك يستحق القطع من أصله ، هذا اللسان الذي لا تستعمله إلا في قول الشر ، كان ينبغي عليك أن تستحي ـ هل تدري ـ وأنت تتحدث هكذا عن شخص ضميره بالتأكيد أخف حملا مما ينوء به ضميرك» .

كان وقع الكلام سريعا ، وقد فرقعت العبارة الأخيرة جافة وصريحة ، قالها بعنف لا يترك أي شك حول رأي صالح في رفيقه ، فهب هذا الأخير واقفا وقد تغيرت ملامح وجهه بفعل الحنق الشديد ، وأحس رفيقه ـ وقد وقف الآخر قبالته وكان أطول منه قامة ـ أحس في التّو بأنه قال أكثر مما يجب ، وأنه لن يستطيع التخلص من هذه الورطة .

صار ممتقع الوجه ، ونادما بعد لكشفه عما في أعماق نفسه ، ولكن فات وقت الندم . أما الصادق ـ وكان مقتنعا بأن الحق معه ـ فقد بدا عليه بأنه غير قابل للسكوت عن شخص ربما لم يصارحه من قبل لمجرد الحذر .

ـ هكذا إذن ! قالها بسخرية ، أنت أيضا تركت نفسك تنساق في ركاب صاحب المزرعة الجديد . ليس غريبا حيث ها أنت تخيب ظني .

ولم يترك له صالح الوقت ليواصل حديثه ، فصاح فيه تقريبا ، بعد أن أخرج زفرة عميقة لا تدري أهي تعبر عن تعب شديد أم هي زفرة سخط .

ـ الخيبة فيك على الأصح ، فمن دون شك أن من يفرط في المسح عليك لن يربح سوى سلخ يديه . إن خطأ هذا الذي تفتري عليه بمثل هذه النذالة ، ربما لا شيء سوى أنه تصرف تصرف الرجال ، ولا بد أنك لا تفهم ما معنى هذا .

وبقي الصادق أخرس ، وقد فوجيء بمثل رد الفعل هذا ، من طرف رجل كان يعتبره حتى هذه اللحظة رجلا جاهلا وعاجزا عن القيام بأية حركة عنيفة .

والحقيقة أن صالح لم يرفع صوته أبدا منذ أن عرفه ، حتى بمناسبة بعض المناقشات ، حيث يكون رأي الجميع ضروريا ، فهو صموت ، ووحيد بمحض اختياره ، وكان دائما يبدى احتقاره المطلق لكل المشاكل ولمختلف النزاعات التي كانت تنجر عن تسيير المزرعة ، ففكر الصادق أنه وجد فيه المستمع المثالي .

كان لديه الكثير من الأشياء التي يريد قولها ـ وهو الذي لا يشركوه في كل القرارات المتعلقة بسير المزرعة ـ وكان الصادق ما يزال ينظر إليه غير مصدق في حين واصل هو كلامه :

ـ متى إذن تتعلمون أنت وأولئك الذين يشاطرونك آراءك ـ وهم كثيرون لسوء الحظ ـ أن تميزوا بين الحسن والسيء ، بين أولئك الذين يجهدون أنفسهم لتحسين وضعك ، وأولئك الذين يستغلون الجهود للاستفادة من كل شيء ؟

* * *

كشف الصادق عن كونه خصما عنيدا للمدير الجديد بعد تسلم هذا الأخير لمنصبه مباشرة ، حفاظا منه على المزايا التي كان يتمتع بها من قبل ، فراح يؤلب معارضة شديدة حققت بعض النجاح ضد كل الإجراءات التي اتخذها مجيد .

كان من بين الأوائل الذين استقروا فوق أرض الضيعة بعد رحيل المالك ، فأعد لنفسه بيتا عند حدها الجنوبي ، حيث رمم حيطانه وسقفه ومنافذه بواسطة المعدات التي نقلها من مخازن المزرعة ، واشترى بعد ذلك أغناما ، وألزم نفسه بواجب تسمينها ، على حساب الكروم دائما ، وحقول الضيعة ، حيث نجح أثناء ذلك في أن يندمج ضمن فرق العمال الدائمين ، وكان جوابه لكل الذين انتقدوا سلوكه ، وكذلك لكل المدبّرين لحالهم» الذين قلدوه ، بأنه في أملاك عمومية ، وبناء على ذلك فله الحق في أن يتمتع بخيراتها بكل حرية . ولم يستطع مجيد أن يجليه عن بيته الصغير لأن لديه أطفالا ، ولكنه حذره بحزم من انتهاك أغنامه مستقبلا لحدود المزرعة .

كان صادق نحيل الوجه ، بارز العينين مغضن الجبين ، أسود الشاربين ، ينتهي كل شارب بزاوية حادة هابطة نحو الأسفل

من كلا الجانبين . تعلو ذقنه وخديه لحية لم تحلق منذ أيام عديدة ، موزعة بلا نظام ، ومجعدة الشعر .

لم يكن صادق يبلغ الأربعين من عمره . ولئن كان «شاشه» الأصفر المتسخ ، وثيابه البئيسة الفضفاضة التي تكسو جسمه الطويل النحيف والقوي في نفس الوقت ، لئن كان كل ذلك يعطيه هيئة الشيوخ ، فإن نظرته الشرسة وضخامة قبضته تنم فيه عن شدة وبأس .

ـ إن ولي نعمتنا الوحيد هنا هو الدولة التي أوكلت إلينا تسيير هذه المزرعة ، فنحن لسنا في حاجة إلى شخص مثل (خلف) هذا الذي يعرف فقط إعطاء الأوامر ، فليتركونا نتصرف حسب مشيئتنا . سوف نجعل من المزرعة جنة حقيقية ، كل واحد منا يستطيع أن يعيش فيها في ستر .

ـ بالتأكيد أنه يجب أن تقادو بالعصا أنت وأمثالك لأنكم لا تؤخذون باللين .

ـ لقد قضينا بفضل الله على أولئك الذين أرادوا أن يقودونا بالعصا كما تقول ، وقد شاركت شخصيا في القضاء عليهم ، وقد قررت أن لا أدع أي شخص يعيش بكل هدوء على منوال الغاصبين بالأمس .

وواصل صالح كلامه وكأنه لم يسمع ؟

ـ الدولة هي التي أعطتك المزرعة ، وما الدولة إلا رجال . رجال هل تسمع ؟ هم الذين فعلوا ذلك ، وليسوا أفرادا من

نوعك ، أما بخصوص هذه الملكية التي تدعي أنه في استطاعتك أن تجعل منها جنة خلال ثلاثة أعوام ، وبلا إدارة مقتدرة ، فسوف نعمل بكل تأكيد وبساطة على تخريبها ، ولن تكون أقلنا إسهاما في التخريب .

ولكن صادق لم يكن مستعدا للجدال ، وكان في أوقات أخرى لا يتردد في استعمال قبضتيه المخيفتين التي وهبته الطبيعة إياهما . كان يستعملهما في كل مرة تتسلط عليه الرغبة في إقناع محاوره بتعليلات صبيانية ويفشل في ذلك . وهو لا يحقق انتصارا بذلك، ولكنه يشعر بقدر من المتعة. وليست الرغبة في العراك هي التي تنقصه في هذا اليوم ، ولكنه بالإضافة إلى أن خصمه أكبر منه سنا ، هو أن صادق لم يكن متأكدا تماما من تحقيق الإجماع لصالحه بين الحاضرين الذين كانوا متفرقين في الحقل ، فاكتفى بضغط قبضتيه إلى أن آلمته سلامياته ، ثم قال وهو يشير بحركة من ذقنه إلى شخص واقف على مسافة من هناك :

ـ فلتنظر إليه إذن ، انظر إليه يا صالح .. لاحظ هيئته ، أليست هيئة المالك المتكبر ، الراضي عن نفسه وهو يراقب مستخدميه ويفرك يديه عند تصوره للمبلغ الذي سيضعه في جيبه بعد جمع المحصول ؟

كان صالح قبل لحظات من انفجار الخصام يستمع بفكر شارد إلى خواطر زميله ، ولأنه كان منشغلا بعمله فإنه لم يستوعب منها سوى جزء ضئيل ، معتقدا أنها تتعلق بمواضيع عادية ،

وفي لحظة من اللحظات سمعه يتلفظ باسم مجيد ، ففهم ان صادق ما يزال متماديا في حملته الدعائية البئيسة ضد مدير المزرعة .

كان ينشر الشكوك الموسومة بالنية السيئة الشديدة الوضوح ، حول قدرة المسؤول ومدى صلاحية مبادراته ، ولم يندهش الفلاح العجوز مطلقا من هذا الكلام ، فقد كان كغيره من عمال المزرعة على علم بالخلاف الذي نشب بين بعض العمال الدائمين ومنهم صادق ، وبين المدير ، حيث قرر هذا الأخير أن يذكرهم بالتزام النظام ، على إثر قضية مشبوهة كان المحاسب مشتركا فيها أيضا ، تتعلق على مايبدو ببيع غير مشروع ، وغير مسجل في حسابات المزرعة ، لمعدات قديمة ، وكان صالح يعلم أيضا أن مجيد لم يشأ أن يقدم المسألة للقضاء ، وطالبهم بإرجاع المبلغ المحول ، عن طريق الاقتطاع من الجراية الشهرية . وقد أجاب صادق حينها في غضب ومكابرة :

– اننا لا نحصل هنا على ما يكفينا لإطعام أنفسنا ، فكيف تريد مني أن أرجع هذا المبلغ ؟ ثم إننا لم نقبض طوال شهور ولو سنتيما واحدا ؟

في حين قنع بقية المذنبين بالتخلص من القضية بهذا العقاب الهين ، في وقت كانت فيه المحاكم الخاصة تصدر يوميا أحكاما قاطعة في قضايا من نفس النوع ، وابتعدوا عن المكان محنين رؤوسهم .

وهز مجيد كتفيه وهو محتفظ بهدوئه كعادته مجيبا .

«هذه بالتأكيد ليست حجة لتصفية مال ليس لكم ، والآن ، إذا كنتم تفضلون أن تنقل القضية أمام المحاكم فأنتم أحرار في أن تدافعوا عن أنفسكم بهذه الصورة ، وحينئذ لن تذهبوا فقط الى السجن ، ولكن يتحتم عليكم التخلي عن أماكنكم هنا» .

ولم يكن صادق يريد ذلك ، فأمسك نفسه عن الإلحاح ، ولكنه صمم على أن يجرب كل شيء من أجل أن يلقى مجيد مصير سابقيه . وشرع في الحين يعمل على إثارة الجميع ضده .

وبعد مضي بعض الوقت من ذلك، أصبح لديه مبرر آخر يريده لمجيد ، ومعه فيه عدد آخر ، فقد أوجب عليهم جميعا أن يبيعوا مواشيهم ، حارما إياهم بذلك من امتياز سمح لهم به المسؤولون السابقون . وذلك بتربية الماشية في أراضي المزرعة . صرخ صادق فيهم .

«إننا إذا لم نتصرف بسرعة فإنه سيتمادى في اندفاعه إلى حد إخراجنا من مساكننا » .



الفصـــل السابــع

«محض صدفة» ردد مجيد في نفسه ، ولكن كان هناك في أعماق ذاته صوت معاند وجموح لا يريد أن يخضع لصوت العقل يؤكد له عكس ذلك . حقا إن التشابه بين الوضعيتين اللتين تداخلتا في نفسه وتوزعتا، ثم تجمعتا من جديد، قد ولد فيه شيئا من الاضطراب ، فبرزت فجأة على تخوم ذاكرته صورة من ماض بعيد الأصداء .. آخر الأيام الجميلة ...

كانت الأرض تعبق بالرائحة النفاذة التي أيقظتها بواكير الأمطار . هذه الأرض التي تعلق بيديه ، كانت تعطيه شعورا بنقاوة الوسخ .

كانت قطع من الطين والقش تتساقط من بين راحتيه وهو يحاول أن يسحقها حتى لا تنطلق فجأة تلك الفخاخ التي كان ينصبها فوق أرضية مكونة من ذلك الخليط ، فتعض على أصابعه مسببة له ألما حادا . إنه اختبار في عدم الدراية بالمهنة كان يعمل على تجنبه بقدر الإمكان ، حتى لا يمس في كبريائه ، وأيضا حتى لا

يثير ريبة العصفور في وجود خطر تحت الطعم اللامع ، وهو حبة زيتون مصقولة وجذابة ..

... تاسعديت ذات العيون الكبيرة التي تطغى على كل الوجه . تاسعديت ذات الخصل الشقراء المتمردة على المشط . تاسعديت ذات الأطمار البئيسة والأقدام الحافية التي كانت حينذاك تقاسمه كسرة الخبز التي كانت تنتزعها من إخوتها الكثيرين بكفاح شديد ، لكونها بنتا ، وهي لذلك لا تمتلك الحق دائما معهم.

كانت تحمل طيور السمان التي كانوا يجمعونها أثناء تفقدهم للفخاخ الموزعة في الحقل المنحدر ، تحت أشجار الفستق الكثيفة العبقة .

كانت هناك نصف دزينة عالقة بالفخاخ يلزم ذبحها بواسطة السكين المسنونة التي كانت لا تفارق جيب مجيد . وكانت تشارك رفيقها الخيبة التي يحسها عند رؤية أحد الفخاخ وقد أبطل مفعوله وبقيت حبة الزيتون على حالها ، وتشاركه الأمل الذي يسبق الاكتشاف ، والفرحة الغامرة التي يثيرها العثور على صيد هام . كالعثور على سمان كبير بأجنحة لمّاعة وهو يتخبط بين كلابتين من الاسلاك الحديدية المقوّاة .

– «لم يبق به دم ، لابد ان نقدمه للقط» .

ولكن مجيد الذي راح كشخص بالغ يتلو البسملة بكل جدية «بسم الله» قبل ان يضغط على السكين فوق حنجرة العصفور في حركة سريعة ذهابا وايابا يرد عليها .

ـ «ومع ذلك سنأكله» .

كانوا يولمون دوريا ، مرة عند مجيد ومرة عند تاسعديت . إذا ذبحت العصافير تصبح لدى المسلم الحق جيدة للأكل ، حتى وإن ماتت قبل ذلك . لم يكن مجيد يتعلق بالشكليات ، فقد كان اللحم الناضج في رماد الكانون يثير الشهية ، وكان الجميع يراقبون بنفاد صبر ، وفي بعض الأحيان كان النزاع يقوم بينهم من أجل فخذ عصفور إذا كانت حصيلة الصيد غير كافية ..

أهي تاسعديت ؟ غير معقول. أيكون شبحها قد استثير باستحضار ذكراها ؟ .

كانت تسير بمحاذاة جدار المزرعة الداخلي . وتوقف مجيد عن التفكير في دزينة الفخاخ الجديدة التي كان يستعد لنصب الأول منها فوق طبقة الأرض الممهدة لذلك . لقد كانت هناك عصافير كثيرة ، فذكرته ثانية بهوايته القديمة . راح قلبه يدق بقوة . مر الشبح سريعا أمام الحائط وكان يحمل في يده قفة صغيرة . تاسعديت عادت لتحضر كالسابق ـ كان ذلك منذ زمن طويل ـ وضع الفخاخ .

وعاش الرجل بعض الدقائق تحت تأثير اللحظات السحرية ، لماذا هذا الظهور في هذه اللحظة بالذات وفي مناسبة استثنائية كهذه ؟ لاشك أن ذلك رمز لقدر .

لم تكن تاسعديت التي شاهدها والتي راحت تبتعد عنه ، سوى وردية بنت صالح بالذات ، التي سبق لمجيد أن رآها من قبل .

كانت تضع نفس الفوطة ذات اللون الحائل على شكل خمار يغطي شعرها ووجهها ، وكانت تسير بالتأكيد بقدمين حافيتين مثل تاسعديت ، ومثلها لابد أن تكون شقراء اللون ، ولها عينان تحتلان قسما هاما من الوجه . وتساءل مجيد عما جرى له :

– «لابد لي أن أبقى محترما .. فهذا الإضطراب .. والانفعال غير لائق بمثلي » .

وهكذا نفذ قراره رغما عن إرادته ، وبدون وعي ، عقد عزمه مع التصميم الشديد على عدم الرجوع فيه ، فجمع فخاخه التي فقدت كل اهتمام من جانبه ، ثم فتح الزجاجة المحتوية على النمل الطائر الذي كان من المفروض أن يستعمله كطعم ، ورمى الزجاجة بعيدا ، ثم راح لبعض الوقت يتأمل الحشرات التي كانت ما تزال مذهولة ، وهي تهرب ثم تتبدد في الهواء . بعدها هب واقفا ، واستنشق الهواء بعمق ، ثم ألقى حوله نظرات فاحصة ، في حين كانت البنت قد اختفت عن الأنظار. وتذكر فجأة أن صالح يشتغل الآن في مربع البصل القريب من ذلك المكان وقد طلب منه هو بالذات العمل به ، ولا بد أنه هناك منذ الفجر ولا شك أن قفة وردية تحتوي على فطور والدها المتبني لها ، ووجودها في هذه الأماكن ليس بفعل الصدفة . وقد جاءت من القرية مباشرة عبر الحقل ، لأنها بلغت سنا لم تعد تسمح لها باتباع الطريق العادي .

وبصفة آلية أخذ مجيد يقطع طريقه ، منشغل البال . كان فكره غير مرتاح . لقد تذكر جملة من الحديث الذي دار

بينه وبين الوناس يوم نزوله بالضيعة . لم يكن لمجيد خلف وهو الآن في سن الخامسة والثلاثين أي رابط عائلي ، وفي القرية لم يكن يعرف سوى أقرباء لهم صلة ضعيفة به ، فهو بالنسبة إليهم كمن لم يبعث للحياة أبدا .

صحيح ، لقد كانت عائلته الصغيرة تمثل أفقر الفروع في العائلة الكبيرة ، ولكنها لم تتلقى أبدا أية مساعدة مهما صغرت من أبناء العمومة الذين كانوا ملاكا موسرين ، وأناسا محترمين بين الجميع . ولعلهم الآن ليسوا أغنياء لأن الحرب قلبت كل الأوضاع الاجتماعية ، وهناك العديد من بينهم من لاقوا حتفهم خلال تلك المحنة . بل إن مجيد قد تناهى إلى علمه بأن بعض الناجين منهم قد اضطروا الى الهجرة من أجل سد حاجيات أطفالهم ، ولكن الروابط بينه وبينهم بقيت على حالها . بالإضافة إلى أن مجيد منذ خروجه من الثكنة بعد التحاقه بصفوف الثورة ، لم تطأ قدمه أرض القرية سوى مرة واحدة من أجل (الحج) إلى البيت الذي شهد مولده ، وهو بيت يبدو من موقعه نفسه وكأنه لم تقم له قائمة في يوم من الأيام ، فقد دكّ عن آخره على إثر قصف مركز ، ثم استعملت الاحجار الباقية في إعادة بناء بيوت أخرى كانت قد هدمت بنفس الوسيلة أثناء العمليات الكبرى لجمع السكان في محتشدات ، لذلك لم يكن هناك ما يشغل مجيد في هذه القرية ، ولم تكن قطعة الأرض الصغيرة التي تركها والداه تستحق أي استصلاح ، وأية مبادرة في هذا الصدد ، وفي جميع

الحالات لن تكون مفيدة ، لأن شجر العليق والنباتات الوحشية الأخرى قد قالت كلمتها الأخيرة بشأنها .

كان قد غادر شقته التي يسكنها في المدينة ، حتى يستطيع القيام بمهمته الجديدة على أكمل وجه ، وفضل أن ينزل في المزرعة .

لم يكن في حاجة إلا إلى غرفة واحدة ، وقد ألح عليه الوناس أن ينزل في الطابق الأول للفيلا ، في نفس السكن الذي يقيم فيه هو ، وساعده مساعدة كبيرة في نقل حاجياته ، وهي أشياء قليلة في حقيقة الأمر ... دولاب عملي لاشتماله على رفوف للكتب ، وبعض اللوازم الأخرى التي لا تضايق كثيرا ، سرعان ما رتبها الرجلان في أماكنها ، ولكن الكتب بصفة خاصة كانت بعدد كبير اندهش منه الوناس .

ـ حقا ... اذا كنت شغوفا بالقراءة لهذا الحد ، فلا بد أن كتبك قد افتقدتك هناك فوق (يقصد في الجبل خلال الثورة) .

ـ إذا أردت الحقيقة ، فأنا لم أكن في حاجة ماسة إليها ، ومن ناحية أخرى كيف يمكن لي أن أجد الوقت للقراءة .

ـ أما أنا فكما ترى ، لا أكاد أحسن سوى رسم بعض الكلمات وبعض الأرقام ، وأقرأ بصعوبة ، ومع ذلك فأنا لا أشعر بالحاجة إلى أكثر من ذلك .

وصعد مجيد بعض الدرجات وهو مثقل بكيدس من الكتب القديمة التي التقطها من هنا وهناك ، من بين الأشياء القديمة التي جمعها في فترة سابقة بعض بائعي الأثاث القديم الشرهون ، الذين نزلوا بقيمتها إلى ثمن بخس . ثم أجابه ببساطة :

ـ هذا من حقك . أما أنا فأحاول أن أعوض قليلا من الوقت الذي ضاع مني بين المدرسة والجبل ...

ثم ختم كلامه وهو يضع بكل حذر رزمة الكتب في أحد أركان الغرفة .

ـ .... وقد تعلمت أشياء كثيرة داخلها .

على غلاف المجلد الأول من رزمة الكتب نقرأ العنوان «التناوب الزراعي للأرض» أخذه وتصفحه هنيهة دون أن يقرأ ، ثم وضعه ثانية وهو يقول :

«إن في هذا الكتاب من المعلومات ما تعجز تجربة عشرة من الفلاحين مجتمعين عن تقديمها خلال حياتهم بأكملها» .

لننزل بسرعة يا سي الوناس نأتي بالباقي .

كان في استطاعة مجيد ان يرى من نافذته كل ملحقات المزرعة ، كماكان النظر من وراء مخازن العتاد يغطي قسما من أشجار الكروم .

من خلال هذه النافذة العارية من أي ستار ، سبق له أن لمح وردية .. لم تكن في ذلك اليوم سوى فتاة هزيلة ينساب شبحها خفية بين صفوف الكرمة . اعتقد أنها ليست سوى طفلة

دون أن يجزم تماما ، لأنها كانت تخفي وجهها بفوطة تونسية ذات لون حائل ، كانت تقصد منها تغطية قسمات الوجه أكثر مما تقصد حماية الجسم من الشمس ، وفوجيء مجيد أول الأمر برؤيتها هناك ، متسائلا عما جاءت تفعل ، ثم فهم حين رأى القفة الصغيرة التي كانت تحملها في يدها ، هي تحمل ولا شك غداء واحد من عمال المزرعة .

وبالفعل يوجد من بينهم من لا يعودون إلى بيوتهم عند الظهر ، فيبقون في أماكن العمل حيث يتناولون وجبة زهيدة يأتون بها عند خروجهم من بيوتهم ، أو يتكلف بحملها أحد أطفالهم قبل فترة الاستراحة .

لعدة ثوان بقي مجيد معلقا نظره الباطني على الصورة الباهتة لوجه تاسعديت ثم اختفى شبحها ، ونسيه بسرعة مدفوعا بمشاغل أخرى . وبمحض الصدفة وفي نفس ذلك المساء خلال حديث مع الوناس الذي صار يأتي كل مساء للسهر معه في غرفته ، جاءت صورة وردية لتحتل مكانا من نفسه .

الفصـــل الثـامــن

بالرغم من الجهد الذي كان يتكلفه ، حيث كانت وسائل النقل نادرة ، فإن مجيد كان ينزل كل يوم إلى المدينة ، مقدرا أن حضوره بين العمال في الوقت الراهن غير ضروري ، مقسما وقته بين مختلف المصالح الإدارية ، مدافعا عن قضية المزرعة رقم (5) ،

كان أول نجاح له منذ الأيام الأولي لتعيينه هو ضمان العمل للعدد الأكبر من العمال الدائمين لدى مسؤولي المزارع المجاورة . ولكن هذا العمل لم يتم بدون متاعب ، فقد واجه الفشل في مهمته مرتين أو ثلاثة ، عند بعض رؤساء المزارع الذين لا يهمهم قبل كل شيء سوى فائدة مستخدميهم ، فكانوا يناصبون العداء لإجراء لم يكونوا ـ كما يقولون ـ ليتحملوا عواقبه ، فكل مزرعة تعيش واقعها الخاص ، وتضطلع بمشاكلها الخاصة . وهكذا كانت هناك أنانية مستحكمة تدفع الرؤساء والمديرين إلى الرفض القاطع لكل اقتراح من شأنه خلق أعباء إضافية على المزرعة .

أما أولئك الذين لمس عندهم الاستعداد للاستماع اليه ولم يبادروه بردهم «هذا ضد النصوص القانونية» فإن مجيد كان عليه في نفس الوقت أن يستعمل كل براعته من أجل إقناعهم بمبدإ الشرعية ، فان لم يكن فبمبدإ التضامن على الأقل .

ـ إننا نتبع نفس الأهداف ، فلماذا ينعزل من الآن بعضنا عن البعض ، إن نجاح مؤسسة كهذه لا يعني شيئا إذا لم نضع في الاعتبار مصالح العمال ككل .

ولم يكن مجيد أبدا يظن في نفسه المقدرة على الخوض في مثل هذه المواضيع وإن كانت الفرصة لم تتح له أبدا من قبل ، ولا سبق له أيضا أن كرس نفسه لمثل هذا النوع من النضال ، فالرجل يحمل في ذاته استعدادات طبيعية لا تكشف إلا في ظروف معينة .

ونفس البراعة مكنته من الحصول على المساعدة التي كان يأملها لاستثمار المساحات المخصصة للخضر من مدير «الشركة الفلاحية للاحتياط» الذي عرف عنه أنه صعب إقناعه ، حصل منه على البذور ، والسماد ، وأدوات مختلفة ، ولم يرفض له طلبا ، بل لم يبخل عليه المدير حتى بتشجيعاته .

ـ يمكن الجزم بأنك تعمل لحسابك الخاص . وستكون من القلائل الذين لا يمكن ان تثبط عزائمهم .

ـ أوه ، لست مناضلا خارقا للعادة ، ولكن هذا من ضمن الأعمال التي تتطلب قدرا أدنى من الضمير المهني ، وإن هذه

المهمة التي أحاول أن أسير بها إلى غاية ، ستجعلني أعتبر نفسي شخصا عاجزا لو أنا فشلت فيها .

ـ أليس سبب وجود شركتنا هو تقديم المساعدة الفنية للقطاع الفلاحي ؟ ويبدو أنك جاد في مسعاك ، ونجاحك غير مشكوك فيه ، ونحن سنكون متيقنين من أننا سنسترجع الدين في أقرب الآجال .

وهذا على كل حال ما كان مجيد يتمناه ، لأن أول فشل سيجر وراءه إفلاسا لا يمكن تفاديه ؛ وبالنسبة للمزرعة 5 فإن أي حظ في انتعاشها سيكون حينئذ ضربا من الوهم .

لقد كان القرض المقدم من طرف الشركة الفلاحية للاحتياط قرضا معتبرا ، وكان لا بد من استغلاله . أما المساعي التي قام بها لدى السلطات البلدية فقد كانت أكثر صعوبة .

«إنه في اجتماع» . وكان مجيد لكثرة ما تردد على الإدارات يعرف أن ذلك كان مبررا يعتقد أنه بفضله سيصرفه دون تعرض للمشاكل . فهم أن المسؤول الذي طلب مقابلته يريد أن يفهمه بأنه يرفض استقباله ، لعله ضاق بشكاواه ، إذ في الواقع أن مجيد كان قد جاء مرات عديدة ، وتحدث فيها مع المستخلف ، وكان كلاهما يجامل الآخر في البداية ثم سرعان ما اختلفا ، وفي المقابلة الأخيرة التي لم تدم طويلا واجه كل منهما الآخر بحقائق مست المستخلف في كبريائه .

كان المستخلف من ذلك الصنف من الموظفين الذين يرون أنفسهم سعداء الحظ جدا بحصولهم على مناصبهم تلك ، ويحذرون أن يعرضوا أنفسهم لخطر الإبعاد عنها على إثر مبادرة قد لا تروق لرؤسائهم . وفيما يخصه هو ، فانه يفضل أن يتخلى عن أي عمل آخر غير ذلك الذي يكلفه به رؤساؤه بالتحديد . وعلما من هؤلاء بأنه لا يعدو أن يكون موظفا تافها لديهم ، همه الوحيد الطاعة والخضوع ، فإنهم ولا شك قد اتخذوا منذ زمن بعيد القرار السهل ، بأن لا يعهدوا إليه إلا بالمهمات الصغيرة تاركينه لصحفه العزيزة على نفسه ، ولدروس اللغة العربية التي ستمكنه من الترقية السريعة .

هكذا كان مجيد يتصور على الأقل تفسيرا للتقصير الصارخ للمستخلف . لم يصل معه إلى حد مصارحته بهذا القول ، ولكنه أشعره به بإيحاءات ذكية .

كان في كل مرة يتنازل فيها الآخر لمقابلته ، يفاجأ فيها مدير المزرعة رقم (5) ببرودة الاستقبال وباللطافة المزيفة للموظف ، الذي سرعان ما يختفي بعد تبادل بعض الأفكار حينما يعرض مجيد مشاريعه الزراعية .

لم يكن المكتب بمظهره الشاغر ليثير أدنى عجب عند مجيد ، ذلك المكتب الذي كان من المفروض أن يتيح لأي رجل كان ، خامل بطبيعته ـ فما بالك بمسؤول واع ـ أن يؤدي مهمته في أحسن الظروف ، ولكن المسؤول الواعي له مهمة أخرى يقوم بها غير إحاطة نفسه بهذه الأبهة . فالستائر وأثاث الخشب

النادر ، والموكيت السميك ، كانت تبدو زائدة بكثير عن حاجة من يولي عنايته للملفات المغلقة ، والتي كانت فوق طاولة العمل مغطاة في الغالب برزم من الجرائد والمجلات ومطوية على عجل .

تحت جبهة ضيقة ، يعلوها شعر غزير مسود ، أشبع دهنا ، ومشط بعناية شديدة ، تستقر عينان كبيرتان مستديرتان ، لا توحيان بالشر، كما ينتفي فيهما أيضا أي وميض للذكاء . كانت نظرة الرجل مليئة بالصلف ، وبذلك الجد الذي يتظاهر به بعض البيروقراطيين في أوقات الزيارات .

كانت نظرته تبدو واثقة ثقة الجهول أو الساذج الذي يدرك حقيقة نفسه ، ولكنه يحاول بكل ما أوتي من قوة أن يخفي ذلك عن الغير ، وأحيانا كان المستخلف يخفي باحتراز عدم كفاءته المهنية خلف غطرسة وترفع سرعان ما تنكشف للمحدث الفطن .

«طالما هم باقون في مناصب كهذه . فإن أفرادا من هذا النوع لن يكون في مقدورهم سوى الضرر ... خشب مسندة ستؤخر طويلا آجالا شديدة الأهمية لأنها عاجزة عن تحمل الأعباء ... ولكن كيف القضاء عليها ؟ إن الثورة بالتأكيد أبعد ما تكون عن الانتهاء» .

هكذا فكر مجيد أمام باب مكتب المستخلف ذي المصراعين الذي كان مغلقا بإحكام .

كان الحاجب قد فقد الاهتمام به ، فلم يعره سوى نظرة قصيرة عاد بعدها سريعا إلى مجلته المصورة التي انصرف عنها

هنيهة ، وهي تماما الوقت الذي رأى فيه مجيد يتخذ له مكانا على بعد خطوتين منه ، فوق مقعد شاغر .

وفكر الحاجب في نفسه «يا صديقي المسكين ، إن صبرك لا طائل من ورائه ، فالمستخلف حين يقرر أن يغلق باب مكتبه في وجه أحد ، فإنه لا فائدة ترجى ... ثم ، وأنت بلباس العمل الأزرق المهتريء والشاشية الصغيرة ...» .

ـ لا بد أن يعطيني الجواب ، قال مجيد لنفسه ... سينتهي في آخر المطاف الى الخروج على أية حال . كان يجهل أن للمكتب مخرجا آخر .

وعند منتصف النهار كان مضطرا إلى الرضوخ لإلحاح الحاجب على الخروج ، فغادر المكان دون رؤية المستخلف الذي كان مقعده خاليا منذ أكثر من ساعة . وخرج من المبنى وهو يزمجر «لا بد من ثورة أخرى» .

بعد أن يئس ، ولم يستطع أن يسوي أي مشكلة على مستوى البلدية ، واقتنع خاصة بأن المسؤول المحلي لا يحمل من المسؤولية إلا الاسم ، راح مجيد يقوم بعملية محاصرة حقيقية لمكاتب الإدارة الجهوية ؛ فالمخطط الزراعي الذي أنجز مشروعه بعد تحقيق عميق قاده إلى كل مديري المزارع بالناحية ؛ بل وإلى بعض الملاك الخواص الذين يمتلكون تجربة طويلة . بدا له كاملا بما فيه الكفاية . وضمنه تقريرا مفصلا عن حالة الأرض وأشجار الكروم ، وكذلك التجهيزات ، ووضع كل ذلك في مكتب

«بولحية» وهو الآن ينتظر أن يسمح له بالدخول ، ويستعد للدفاع عن أفكاره ، لأن الرئيس ـ وهو يعرفه عن قرب ـ لم يكن من السهل إرضاؤه عن طريق الشروح الإجمالية .

ـ إن أي تأخير في التنفيذ لن يؤدي إلا إلى تفاقم الأوضاع .

وانتزع بولحية نظارته بتأن ، وكان مكتبه كعادته مكتضا بالأوراق .

ـ كل هذه الأوراق صدرت عن أناس انتهوا مثلك إلى نفس النتيجة يا سيد خلف ، ولكن تعد مخاطرة كبيرة أن نشرع بمبادرة منا في تطبيق مشاريع ما تزال قيد الدرس على مستوى عال .

وفي هذه الآونة بادر أحد «الأمخاخ» كان يجلس قبالة مجيد أمام مكتب المدير ، بأحد تدخلاته السخيفة التي تبرر أشد النعوت سخرية إزاء البيروقراطية :

ـ «إن بلدنا ينتج كثيرا من البترول ، وما زال ينتج أكثر فأكثر ، ومع ذلك فهو لا يستهلك منه إلا جزء أدنى ...»

هل هو مدمن على الكحول ، أو عديم الوعي ، أو مخرب ؟!
كانت الافتراضات الثلاثة كلها مقبولة في ذهن مجيد ، ولكنه بعد قليل من التردد ، كضم غيظه ، واتجه بحديثه إلى الرئيس دون أن يعير الآخر أي نظر .

ـ إن وطننا يستهلك كثيرا من القمح ، ولا يأتي من محاصيلنا إلا جزء قليل ، فمن أين يأتي الباقي إذن .

وخشية أن لا يؤخذ كلامه مأخذ الجد فقد عارض مجيد رغبته في ركوب رأسه ، واحتقار شرعية يتكفل بها رجال هم على قدر ضئيل من الاهتمام بالواقع . ولم يطلق العنان لهواه إلى درجة تجعله يتجاهل حقيقة أن تغيير زراعة الكروم إذا كانت ضرورية ومستعجلة بالنسبة للمزرعة رقم (5) فإنه يخشى أن تطبق بشكل سيء في ضيعات أخرى تشكل الكروم أساس إنتاجها فلا بد إذن من مخططات زراعية دقيقة تخضع لدراسة متأنية وأي خطأ يرتكب قد يؤثر بصفة سلبية على قرارات مختلف التنظيمات الفلاحية وعلى التسيير الذاتي نفسه ، الذي يقوم على أسس ما تزال غير قوية ، ومازالت بعض الأوساط تعتبره مجرد مصدر للفوائد السهلة لبعض الأشخاص المنعدمي الضمائر ـ وبعض الأحداث القضائية الجارية تشهد على نذالة بعض المسيرين ـ فالتسيير الذاتي معرض لخطر ضياع الاعتبار .

وخرجت من بين شفتي سي والي العبارة التي لم تكن متوقعة .

ـ طيب ، نفذ إذن مشروع القمح .

فاعتدل مجيد في جلسته من التأثر وهو ما يزال غير مصدق ، فواصل المدير .

ـ نعم يا عزيزي ، لقد فحصت أنا شخصيا مخططك ، واللجنة ليست ضد مبدأ التغيير ، ولكن كان من اللائق انتظار التعليمات الرسمية ، وبخصوص المزرعة رقم (5) فإن الأمر يختلف فالكروم قد شاخت ، وهي في حاجة إلى أن تعوض ، وعليه فلا نضع الكرم مكان الكرم ، لنزرع القمح بدله في مرحلة أولى ،

وعليك الآن أن تنتظر الخريف ، ومن الآن ، وحتى ذلك الوقت ، سنشعرك بذلك ، وعلى أية حال ، أظن أن العناقيد قد بدأت تتشكل الآن ، وسيكون لديك الوقت الكافي للاستعداد .

ووجه مجيد نظرة قصيرة إلى «التقني الخبير» الذي بقي غير مكترث غائصا في الأريكة الواسعة ، ثم صافح الرئيس ، الذي مد له يده من فوق ملفاته وخرائطه . إن المعركة ستبدأ وشيكا في ميدانها العملي .

* * *

تحسنت حالة العمال الدائمين الذين بقوا في المزرعة بصفة معتبرة ، وكذلك العمال في الضيعات الأخرى ، وقد أعطيت لهم الأسبقية على غيرهم من العمال الموسميين العاديين في قطف البواكر ، وقلع الحشائش ، وفي مختلف الأعمال المتصلة بها .

وفي انتظار الانعتاق من شجر الكروم ، كانت الجهود مركزة على زراعة الخضار . وكان المردود الجيد هو الهدف الأساسي ، فلم يكن مجيد ليهمل أية معلومة حول الوسائل التي تؤدي الى ذلك ، فكان يرجع الى مختلف الكتب التي تتناول مثل هذا النوع من الزراعة ، قبل أن يشرع في المعالجات اللازمة للأرض وقدمت له الشركة الفلاحية للاحتياط عشرات القناطير من السماد ، وكانت الحاجة ماسة إلى مضخة مياه ومحرك لأنهم سيحتاجون إلى كثير من الماء ، فنجح بفضل مهارته في الحديث في الحصول على كل ذلك من المصالح البلدية .

ولم يندهش العمال وهو يطلب منهم أن يضعوا المكينة الجديدة تماما في مكانها . ولكن وفي نفس الوقت الذي كان مجيد منصرفا فيه بنشاط إلى الحاضر ، فانه لم يترك المستقبل للصدفة . فإذا كان يعلم أن موسم العنب القادم سيكون الأخير ، فإنه لا يريد أن يكون بسبب ذلك أسوأ المواسم ، ومن أجل ذلك فقد اتخذ كل الاحتياطات . ورانت البهجة خلال أعمال العناية بالكروم وصيانتها . ولما كان الجرار الذي يجر عادة عربة السلفاط معطلا منذ مدة ، فإن السواعد الشديدة التي ضاعف الحماس قوتها قد عوضته .

* * *

لم يحدث خلال السنتين السابقتين أن بيع إنتاج قطعة الأرض الكبيرة المخصصة لعنب الطاولة ،فالكل كان يرى أنه لا يوجد إلا كمية غير كافية من كل صنف ، فاستغلت لإشباع بعض عائلات العمال الجريئين ، أو ببساطة غير الواعين ، لاعتبارهم وقد أصبحوا اصحاب المزرعة ، بأنه طبيعي أن يكون هذا العنب لاستهلاكهم الخاص ، كما كان الأمر بالنسبة للمالك القديم .

كان المحصول في هذه السنة واعدا ، لذلك فإن مجيد - اقتناعا منه بمبدإ أن الثمرة المبكرة كمثل الثمرة المتأخرة، كلاهما تحظى باهتمام المستهلك ـ كان يرى في ذلك وسيلة لتخليص المزرعة من جزء من ديونها .

أثار ذلك سخط العمال ولكنهم لم يتجرؤوا على الاحتجاج ، وبواسطة رصيد كبير من المبيدات ، خاض فريق العمال الذي عين خصيصا للعناية بقطعة الأرض التي صارت الآن محمية ، كفاحا لا هوادة فيه ضد الطفيليات التي تصيب الكروم . ووضعت العناقيد التي ما تزال خضراء بعد ، بعناية داخل أكياس من السيلوفان .

كان هناك ما يكفي لتسليم عدة دفعات من كل صنف لتعاونية التسويق أولا ، قبل إشباع حاجة السوق ، ثم تأتي الغلة الكبرى بعد ذلك .

* * *

كان هذا النشاط الذي لا يهدأ وهذه اليقظة التي لا تفتر في أية لحظة كفيلين بالقضاء على مقاومة أي رجل مركب تركيبا عاديا ، ولكن كما كان أثناء فترة التدريب المهني ، فإن تكوين مجيد الجسماني الذي صُهِرَ في ظروف هي بالأحرى قاسية ، لا تسمح له إلا أن يكون منهكا بعد أيام من الكد ، حيث يعاين أثناءها كل شيء ، ويشارك بيده هو بالذات في بعض الأعمال .

الفصــل التاســع

كانت فكرة الزواج في أول الأمر تثير في نفسه ضحكا لا يقاوم . ما هذا ؟ إنه هنا من أجل القيام بعمل محدد تماما ، وليس من أجل تأسيس بيت . ما عسى أن يفكر فيه الناس ؟ ثم اتخذت الفكرة طريقا في نفسه ، فلم يعد يعتبرها كرغبة أو نزوة ، هذه الفكرة التي راحت تعذبه دون أن يجرؤ على الاعتراف بذلك ، منذ أن عرف ابنة صالح ، أو على الأصح لمحها فقط . وعلى أية حال ، الآن او فيما بعد ، وخير الأمور عاجلها إذا كان ولا بد من التسليم بآراء الوناس الذي أوحى له بمشروع الزواج .

ـ مهما يكن سنك ، فسوف تضطر إلى الزواج من واحدة يقل عمرها عن عشرين سنة ، أو من أرملة ، أو مطلقة ، ولا يخفى عليك أنهم يزوجون الفتيات في سن مبكرة هنا ، فليس هذا عيبا ولا إثما ، إنه شيء طبيعي ، ومن الأفضل لك أن تقرر قبل أن يعطيها صالح لغيرك بالرغم مما يدعيه .

كان صالح قد أبدى رفضا قاطعا لكثير من الطالبين ، فانتهوا إلى القول بأنه يتخذها كخادمة لأنها ليست ابنته ، فألسنة السوء لا تضيع أية فرصة ، ،صحيح ان وردية ابنة العشرين سنة كانت في سن الزواج ، بل ذهبوا إلى القول بأنها الآن قد تجاوزت سن الزواج من رجل شاب . وكان الرجل العجوز يقول لمن كانوا يلومونه على موقفه :إن وردية هي «عماد» البيت . فإذا زوجتها فلا بد للزوج أن يأتي ليسكن في بيتي ، أوينقلنا لنسكن في بيته أنا وزوجتي العجوز ، ولا أحد يستطيع أن يقبل هذا الشرط ، وهذا أحسن .

حقا لقد كانت وردية تقوم بكل شيء في بيت صالح المتواضع ، وكانت العجوز التي كانت وردية تعتبرها دائما كأمها الحقيقية وتحترمها مثلها ، قد ألقت على كاهلها أعمال البيت ، تماما مثل غرس الخضر ، والقيام بأعمال أخرى مثل الذهاب يوميا إلى المزرعة حاملة طعام الشيخ . فإذا حدث أن فارقت البيت فلن يبق هناك من يشد أزر الزوجين العجوزين اللذين لم يكن لهما أبناء آخرون .

وكان صالح متيقنا في قرارة نفسه بأنه سيتخلى عن شروطه إن عاجلا أو آجلا ، وهو في نهاية الأمر لم يكن يؤمن بالشروط التي كان يشترطها لأنها ضد العرف ، وعلى أقل تقدير ضد أبسط قواعد التفكير السليم .

لم تكن وردية ابنته . كان قد التقطها وهي صغيرة تماما لقد مضى على ذلك وقت طويل ، وكانت زوجته عاقرا ، فاستقبلت الطفلة المشردة بفرح ممزوج بقلق خشية مجيء والديها الحقيقيين .

كان صالح قد عثر عليها ذات مساء خريفي وهي ترتعد من البرد . والصحيح أنه لم يعثر عليها حقيقة ، ولكنه كاد يدوسها وهو راجع عند هبوط الليل ، حاملا قفته الصغيرة في يده ،متعبا يجرجر رجليه .

كان ذلك سنة 1954 ، ولم يستطع صالح أبدا أن ينتزع من الطفلة ذات الثماني سنوات معلومات تسمح له بإعادتها إلى أهلها ، وهكذا نشأت عنده مثل ابنته ، ونسيت وردية تقريبا بأن والديها الحقيقيين كانا من أوائل ضحايا حرب التحرير.

كانت وردية هي تاسعديت ، هكذا انطبع في نفس مجيد الذي جاء ليستمع إلى توضيحات رفيقه ، وكانت قصة حب تقريبا .

قال له صالح «أنا لا أطلب شيئا ، فأنت لست من هنا ، ولا أعرف شيئا عنك ولا عن أهلك ، ولكن ما أهمية ذلك ، فأنا مطمئن إليك . فلنضع ثقتنا فيما جرت به العادة ، وعلى الله الباقي » .

كان هذا نهاية حديث طويل دار في صالة داخلية بأحد مقاهي البلدة ، وكان الشاهدان من عمال المزرعة ، تم ذلك

في سر ، وبالحضور المعتاد لرجل دين عهد اليه بعقد القران . ذكر اسم النبي ثلاث مرات من طرف صالح ومجيد ، هذا وهو يقدم طلبه مستعينا بعبارة قصيرة جاهزة ، والآخر وهو يعرب عن قبوله . أما وردية فإنها وإن لم تكن طرفا في المحادثات ، فانها كانت قد استشيرت بدورها من قبل من طرف أمها بالتبني بإلحاح من صالح . بل وقد تمكنت من رؤية زوجها خلسة ، الذي عينوه لها . ومنذ هذا اليوم لم تعد تذهب إلى المزرعة ، فقد أصبح ذلك غير مناسب ».

واقترح مجيد قائلا :

ـ «سيكون الزفاف مباشرة بعد آخر قطاف للعنب» .

فتمتم صالح :

ـ «نرجو من الله أن يحيينا حتى ذلك الوقت» .

الفصــل العاشــر

عدة عروض هامة عرضت على المزرعة لشراء المحصول من عنب الطاولة في شجره ، وبعد مناقشة الموضوع ، استقر رأي اللجنة على العمل على بيعه بوسائلها الخاصة ، نظرا إلى أن الإنتاج كان يبشر بالخير الكثير ، بفضل العناية الخاصة التي أحيطت بها الأعناب ، ومن ناحية أخرى ، فإن جني المحصول سيمتد لفترة طويلة ، لأن بعض الأصناف تنضج قبل البعض الآخر .

وكان الباكور منه مهيأ بعد للقطاف ، وقد سمحت الدفعة الأولى منه لتعاونية التسويق ، على إثر اتفاق مع البنك ، بدفع تسبيقات سخية للعمال . ولم تكن الدفعات الموالية أقل فائدة ، حيث استعمل مردودها في تصليح سيارتين من سيارات الخدمة .

ذات يوم قال مجيد لسي الوناس :

ـ لعله آن الأوان لاستدعاء مجموع العمال الدائمين .

ـ كن مطمئنا ، لقد شرعوا بعد في العودة من تلقاء أنفسهم . إن غربتهم قد انتهت . لن يكون عدد الرجال الأربعين كثيرا للقيام بعملية القطاف ، إذ لا بد بهذه المناسبة من استدعاء ما لا يقل عن هذا العدد من العمال الموسميين ، من سكان القرية المجاورة ، الذين سيسارعون إلى المكان بمجرد سماع الخبر .

وعلق الوناس بقوله :

ـ سيكون المحصول الأول الذي أشارك فيه بلا هموم كثيرة .

فلاحظ مجيد قائلا بلهجة مازحة :

ـ وسوف يكون الأخير من نوعه ، إنه إذا أردنا أن نسد نهائيا عجز المزرعة ونسدد الدين الذي يواجهنا به البنك كلما طلبنا منه شيئا ، فانه في صالحنا أن لا ننتظر طويلا .

كان انشغاله الأساسي ما يزال قائما ، فالقرار الذي كان يترجاه يوما بعد يوم قد تأخر في المجيء ، فكان هذا يعذبه ، مع أن الجرائد كانت قد بدأت تتحدث عن تخفيض مساحات الكروم كشيء يتوقع الشروع فيه في أجل قريب . كان يحدث له أحيانا أن يعتبر شجيرات الكرمة التي ينوي القضاء عليها بمثابة أعداء يكن لها مقتا ، سوف لن يزول إلا حينما تزيل تيجان سنابل القمح كل أثر ـ حتى من الذاكرة ـ لتلك الصفوف المتوازية منها .

قال مفضيا للوناس :

ـ لقد نجحنا في إنقاذ المحصول ولكن قل لي ، ما الفائدة في ذلك إذا كانوا سيردون علينا في مخزن تعاونية الخمور بأنه سيبقى محتبسا كالمحاصيل السابقة .

كان ذلك ما يشغله على الدوام . كان في كل مرة يخلو فيها بعض الوقت من عمله ، أو تزايله صورة وردية ، فإن ذكرى كسرة الشعير ـ التي كان العدد الأكبر من سكان الريف مضطرا لأن يقنع بها ـ كانت تعاوده على شكل اللازمة الموسيقية .

كان لا بد له أن ينجح ، وسيكون ذلك هو انتقامه الشخصي من الماضي ، وانعتاق هذه الأرض التي أطعمت أناسا جاحدين ، أولئك الذين امتصوا خيراتها بلا حياء .

وراح يفكر بلا طائل ، إنه لو كان الأمر يتعلق بزراعة أرض يمتلكها ، هو ، لما تحلى بكل هذا الصبر ، لقد ولد فقيرا ، وهذا يغفر له في نظر ضميره الخاص إصراره الذي أبداه من أجل تحقيق حلمه .

* * *

في الصباح الباكر ، وفي الإشراقة الرمادية الأولى التي تسبق طلوع الشمس ، كان هناك صف لا نهاية له ، يمتد أمام باب الضيعة ، وكان المتخلفون يصلون بلا انقطاع مبهوري الأنفاس ، قلقين من فكرة أن البعد أو استراق النوم لهم قد يحرمهم من يوم عمل .

كان هناك على الخصوص أطفال ومراهقون ، ولكن كان هناك أيضا ، رجال أقوياء في حالة بطالة ، وهؤلاء كانوا حريصين أشد الحرص على اغتنام مثل هذه الفرص النادرة التي كانت تفيدهم بيوم عمل مدفوع الأجر ، والمزارع بدورها كانت تجد فيهم عونا نادر القيمة أثناء الأعمال الإستثنائية ، أما باقي الوقت فيقضونه في القرية متعطلين عن العمل . إنك تشعر عند رؤية لباسهم وطريقة عيشهم ، بأنهم لم يكونوا ينتظرون من الإستقلال أي شيء سوى أن يعمل الواحد منهم كأجير ، وهو عمل غير مضمون في الغالب ، ووقتي على الدوام .

وكان بعض الفلاحين الذين يشتغلون في أراضي الخواص المجاورة ، وهم أساسا خماسون ، يحضرون مواسم القطاف هذه وكأنهم في احتفال ، فيزداد اللغط بحضورهم .

كان مجيد قد أكد على جدية العمل ، بالإضافة إلى أن الأجر سيكون تبعا لكمية العنب التي سيقطفها كل شخص . الا أن الظرف كان من تلك الحالات التي لا تتطرق فيها فكرة التكاسل إلى أشد النفوس مكرا ، كان كل الذين حضروا هناك ـ بما فيهم الأطفال ـ عاقدين العزم على العمل .

وأمام ذلك المد من الناس ـ مع أنه كان متوقعا ـ ندت عن الرئيس بعض الاعتراضات :

ـ كيف سنتمكن من دفع أجور كل هؤلاء ؟ فأجابه مجيد

– أتدري بأننا سنخلص إلى نفس النتيجة . أن ندفع لخمسين شخصا لمدة يومين أو لمائة ليوم واحد ، أضف الى ذلك أن العنب لا يحتمل الانتظار ، وأننا بهذا سننتهي بسرعة .

كان العمال الدائمون يدخلون رأسا الى الضيعة ، ومنهم الراجل والراكب على دراجته ، فخورين بالدور الذي استحقوه ، وبانتسابهم أيضا الى المزرعة ، وإعفائهم من الوقوف في الطابور مثل الآخرين . كان كل واحد منهم مكلفا بمراقبة إثنين أو ثلاثة من العمال غير الدائمين ، وذلك حتى يسير العمل على وتيرة سريعة .

وتوقفت الهمهمة التي كانت سارية في الطابور دفعة واحدة ، حينما فتح الباب على مصراعيه ، وغمر جمع الفلاحين ساحة الضيعة حيث كان كل شيء معدا لاستقبالهم ، وكان الكاتب الشاب حاضرا ، وكذلك أحد الطلبة الذي جاء ليتطوع بخدماته خلال فترة العطلة .

سجل الكاتب الأسماء في دفتره ، ثم وزعت أدوات العمل ، وكانت سكاكين مشحوذة بعناية ، ومناجل ، وأواني وقفافا ، وصناديق ، وسلالا صغيرة وكبيرة ، بل حتى مجرد علب كرتونية .

بعد ذلك اتجه العمال صوب الكروم ، حيث غابوا عن النظر بسرعة وانكبوا على عملهم في الممرات ، اما من وصلوا متأخرين ، فقد وجدوا القائمة قد أغلقت ، واضطروا إلى العودة خائبين .

وفوجيء مجيد برئيس العمال يهنئه على حسن التنظيم الذي شارك فيه هو نفســه .

ـ إنك حقا أكثر من مجرّد مدير مزرعة مقتدر ، إن هذا عمل مسير إداري خبير .

والواقع أن خشية مجيد من أي سبب من أسباب عدم النظام قد جعلته يعمل لكل شيء حسابا ، ولم يتمكن إلا بحزمه المعهود من إعارة جرارين وبعض العربات ، راحت تقوم بسلسلة لا نهاية لها من الذهاب والإياب ، بين المزرعة ومخزن الخمور القريب من هناك .

ونقلت قناطير من العناقيد السوداء المغبرة ، وكان هناك حماس شامل يحث العمال القاطفين ، الذين راحوا يؤدون عملهم بكل تفان .

ومن هنا أو هناك ، من بين الشجيرات المحملة ، كانت تعلو في الجو الحار أغنية منغمة مليئة بالحبور .

كانت ساحة الضيعة تعج بالنشاط بفعل حركة ذهاب واياب الحمالين الذين كانوا يفرغون محتويات قفافهم في العربات المقطورة ، وبعد ذلك يتحرك الجرار ـ وقد امتلأ على هذا النحو ـ فيعوض في الحين بجرار آخر ، لا يلبث أن ينطلق بدوره في جو مشبع برائحة الحموضة والحلاوة ، هي رائحة الخمر المدوخة .

وكانت الأرض مفروشة بالعناقيد الصغيرة التي ديست في

حمى الحركة ، وكذلك في الطريق الكبير ، وعلى طول المسافة التي تنتقل فيها العربات .

وفي الكروم ، كانت هناك عصابات من الأطفال الصغار ، وقد انجذبوا مثل الزنابير وحطوا على الأماكن التي تركها العمال ، وراحوا يلتقطون من هنا وهناك بعض العناقيد المنسية ، ولا صوت يأتيهم من مرصد الحراسة المهجور ، الذي ما يزال قائما وسط السهل ، ولم يكن في وسع العمال المنشغلين أن يفعلوا شيئا من أجل إيقاف هذا النهب الصغير ، علما أن ذلك لا يترتب عليه أي ضرر .

كان الجميع يعملون بحماس شديد بدافع التفكير في أن الأجور ستدفع لهم في القريب ، وأنها ستدفع لهم بعد ذلك بصفة منتظمة .

كانوا ينتظرون أن يجعل الانتصار الذي سيتوج جهودهم من ذلك الأجر تقسيما حقيقيا للأرباح .

* * *

إذا كان القطاف قد انتهى ، فإنه لا يجب التراخي ، فقد بقيت هناك مهمة كبيرة . لقد كانت التجهيزات غير صالحة للاستعمال ، فشرعوا في اصلاح كل ما يمكن إصلاحه ، على أمل أن تدفع لهم الأموال بلا تأخير ، وهو أمل تبرره حقيقة أن توقيع العقود مع بعض البلدان قد أعطى نفسا جديدا لتسويق الخمور التي بقيت مخزونة في الأقبية ، وهذا سيسمح على الأقل

بتعويض أرباح المزرعة من مخزون المواسم السابقة ، وهكذا سيتمكن محاسب الخزينة من تزويد المزرعة (5) في البنك ، وسيكون على بينة حينها بأنهم على وشك ربح المعركة .

كان مجيد أمام الجمعية العامة بأعضائها الأربعين مشوش التفكير بعض الشيء ، فهو لم يتعود الحديث أبدا إلى جمع غفير من السامعين ، بالرغم من أن حديثه كان يهم مستقبل المزرعة بالإضافة إلى أنه لم يكن يجهل بأن قراره الذي اتخذه قبل بضعة شهور ، والقاضي بتوزيع خمسة وعشرين عاملا عبر المزارع المجاورة لم يحصل على الإجماع ، وهناك البعض ممن يحبذون استمرار ذلك القرار.

وكان لا بد له من تقديم المبررات ، لا سيما في هذه اللحظة التي توجهت فيها نحوه هذه الوجوه الأربعون تنتظر بفارغ الصبر أن يشيع فيها البهجة التي أشرقت في ملامحه هو نفسه ، بالرغم من الارتباك الذي حاول إخفاءه عبثا .

كان نداء العقل هو الذي دفع به إلى الحديث ، فأخذ - وقد سيطر على ارتباكه - يستعرض بالتفصيل البرنامج الذي وضعه بمنتهى العناية ، والذي بعث (بولحية) موافقته عليه مؤخرا ، وزكاه المجلس البلدي للتنشيط ، وكلما انطلق في حديثه كان هدوؤه يعود إليه شيئا فشيئا ، واستطاع أن يتابع على الوجوه الشاخصة إليه الأهمية المتزايدة التي راحوا يولونها لتوضيحاته ، وهذا ما غمره بالارتياح ، لأنه إذا كان يدرك أن موافقة الرؤساء

تعد أمرا شديد الأهمية من أجل تحقيق المشروع ، فإنه لا يخفي عليه بان المشاركة الكاملة للعمال ـ وهم المعنيون الحقيقيون بالأمر ـ هي التي يمكن أن تقوده إلى النجاح .

ـ «إن عهد الكروم قد ولّى ، وإن لبلدنا الأرض الصالحة للقمح ، والقمح هو ما يلزم لأبنائنا ، وإن الكروم الشاسعة التي تلتهم أريافنا منذ أجيال ، لا تمثل أي نفع بالنسبة إلينا» .

وتوقف طويلا عند حديثه عن الكيفيات التي يرغب أن تتم بها عملية التغيير ، بل راق له أن يخوض في تفاصيل زراعة المستقبل في نهاية مراحلها الثلاثة المرتقبة ، حيث كان من الضروري للبرنامج حقيقة أن يمتد لثلاث سنوات ، وذكر بعض الأرقام التي كانت على أقل تقدير تعكس تفاؤله .

وصفق له العمال الذين كان لهم الدليل الملموس بأن المسؤول الجديد لم يكن حالما ، وبأنه لا يلقي الكلام على عواهنه ، بالرغم من بساطة كلماته ، كانوا متأكدين بأن وعوده تتجاوز في مداها تلك المشاريع الباطلة التي كان يتشدق بها «التقنيون» السابقون خلال فترات مسؤوليتهم القصيرة .

لم تعد المزرعة (5) هي ذاتها ، فالبنايات المهدمة قد أعيد ترميمها ، وحلت ادوات جديدة محل الأدوات القديمة . وقد كان مجيد واثقا من أنه لولا تلك المتطلبات المختلفة التي اقتطعت قسطا وافيا من الأرباح ، لكان في الإمكان توزيع قسط منها على العمال ، لأن غلال الخضر لم تكن شيئا هيناً .

وأنهى حديثه بقوله :

ـ بالأمس لم تكن هذه المزرعة تطعم سوى عائلة واحدة أما اليوم فهناك أربعون عائلة تنتظر المنتوج ، وستكون هناك زيادة في المستقبل ، فإذا كانت الجهود المبذولة من طرف كل واحد في مستوى الطموح الجماعي ، فإن في إمكان كل واحد منا أن يجد هنا حصته من الربح بمقدار القيمة التي يكون عليها عمله .

وحينما كان المخزن الذي كانت تقام فيه الاجتماعات يفرغ ما في جوفه ـ حيث كان كل عامل يغادر المكان يحيي ثم يخرج ـ كان مجيد يستعرض في مخيلته صورة المزرعة ، في الربيع الموالي . وبعد ذلك خرج بدوره ، مقتفيا خطوات الوناس .

الفصـــل الحـــادي عشـــر

بقيت ذكرى التعيين حية في ذهن مجيد . إن لكل عمل جزاء ، فقد حقق للمزرعة إنجازا يعوض تعويضا وافيا جهوده اليومية التي بذلها طوال ما ينوف عن العام . وبالرغم من المشاكل التي ما تزال معلقة ، فهو غير نادم على قبول مهمته هذه ، بل بالعكس ، فهو يستمد القوة من وعيه بفائدة وجوده ، من أجل مواصلة مهمته بلا كلل .

ومع ذلك ، فقد كان هناك ظل في اللوحة ، هناك وردية التي أصبحت غير راضية بالعيش في الريف ، وردية بالذات التي ولدت في هذا الريف ، وكان من المفروض أن لا يكون لها طموح أكثر من أن تمضي كل حياتها فيه بجانب زوج يعطف عليها .

كانت وردية قد صارت زوجة لمجيد منذ بضعة شهور ، وكان لقاؤه بها يعد في نظره أحسن تعويض له على كل المنغصات التي تخطاها في صبر ، جاءته في نهاية كل المعاناة التي لاقاها ،

كمكافأة له ، كتعزيز للأمل في حياة هنيئة أكيدة لم يدخر وسعا في سبيل تحقيقها .

لقد صارت الفتاة امرأة محبوبة ومدللة ، وكانت تلك الأويقات التي يخلوان فيها لبعضهما تنسي مجيد بسحر الحب الاول ، انشغالاته اليومية بالأعمال الفلاحية ، والشكليات الإدارية ، حتى وإن كانت هذه الأويقات تأتي في الغالب متأخرة ، بعد موعد الغداء المعتاد ، أو في الليل المتأخر .

وعلى عادة الشابات المتزوجات حديثا ، لم تكن وردية تدخر جهدا في العناية بتدبير المنزل ـ وإن كان ذلك طبيعة فيها ـ من أجل أن توفر لمجيد أكبر قدر من الهناء والرفاهية ، فبالرغم من البرد ، كانت تلزم نفسها بإعداد فطوره ، فتقوم معه ، وفي بعض الأحيان تقوم قبله . فهل سيتغير هذا فجأة ؟ لقد بدأ مجيد يتوقع عواصف الحياة الزوجية التي ستلحق الضرر بعمله ولا شك ، وتضاعف من انشغاله أو تصرفه عن واجباته .

عند ما خرج هذا الصباح ـ وكان لديه متسع من الوقت ، قام فيه بغسله المعتاد وتناول فطورا خفيفا ـ كانت وردية ما تزال نائمة ، أو تراها على الأصح تتظاهر بالنوم العميق كما لا حظ مجيد ؟ إنه الآن يحرص على عدم إيقاظها . فكر في نفسه وهو يغلق الباب بحذر ، متجنبا إحداث أدنى ضجيج «إنها لم تنسى ما جرى بالأمس» .. ثم خطرت بباله فكرة أكثر شمولا ، وأكثر إقلاقا للبال أيضا :

«إن بيتنا الزوجي قائم على شكل من أشكال الحياة الزوجية المستوردة ، وإن القيام على شؤونه بالطريقة الغربية ستؤدي بنا إلى الدمار ، سيصبح الواحد منا في القريب غريبا عن الآخر ، إلا إذا ولد لنا ولد ، فإنه سيجمعنا بطريقة أفضل ، وذلك بإبعادنا قليلا عن بعضنا ، فهل كان هذا سيحدث لو أن تاسعديت نجت من الحرب !؟ ... » .

* * *

ـ «ألا ترين المعركة التي أخوضها هنا ؟ لقد التزمت بها بمحض اختياري ، ولم يفرضها علي أحد ، وكان في استطاعتي أن أرفض هذا العمل حينما عرض علي » ثم أضاف بلهجة مليئة بالحنان :

ـ ولو أنا رفضته ما كنت قابلتك حينئذ أبدا .

ـ قل على الأصح لهدمت مستقبلك في الوظيفة . اعترف بذلك. وهز مجيد رأسه كمن لا يدري أي حجة يستطيع أن يقنع بها محدثه :

ـ انك لم تستفيدي كثيرا من ذهابك للمدرسة ، هل تدرين ذلك ؟ إنهم لم يحدثوك إذن أبدا عما يسمى بالضمير المهني ؟ إن مستقبلي لم يكن مهددا بأي شكل من الأشكال .

واغتنمت وردية الفرصة :

ـ وإذن ، فإذا كان الأوان لم يفت ، فاطلب العودة الى مكتبك ، وهيا بنا نقيم في المدينة .

كان مجيد يتوقع مثل هذا الرد ، ولكنه لم يكن يود أن تتفوه به زوجته ، لقد اتضح له الأمر .

كأنها لم تفهم ، واذن فهي لن تتردد في التخلي عن قربها من والديها ، وعن عالم طفولتها المألوف ، من أجل أن تذهب لتغلق على نفسها في شقة ضيقة وسط الضجيج ، ولكنه آثر أن لا يخوض في هذا الميدان ، فهي تخشى أن تتحول المناقشة إلى إيضاح جاد للمسائل .

والتقى حاجباه السوداوان حينما قطب جبينه ، وأطبق جفنيه تحت تأثير الخلاف واستأنف حديثه بصوت خافت :

ـ اسمعي يا وردية ، إن ما تطلبين مني فعله هو اعتراف بالفشل ، هل تستطعين أن تتصوري لحظة من اللحظات أتقدم فيها أمام رؤسائي وزملائي ورأسي منكس لأقول لهم بأنني لم أكن في مستوى المهمة التي كلفت بها ؟ .

وبدا على وردية أنها لم تسمعه حتى مجرد السماع ، كانت منكسة الرأس ، ومنهمكة بكل اهتمام وتركيز في عجن إحدى الوسائد الصغيرة التي انتهت منذ قليل من خياطة أغلفتها بعد ما كانت قد ملأتها بالصوف الخام .

ورشقها بنظرة متسائلة كما يحدث في كل مرة يرين الصمت بينهما .. كان قد عرف ذلك الشعور المزدوج الذي أثار قلقه بعد بضعة أسابيع من زواجه مباشرة ، وبدا له بأن وردية إذا دامت على أخذِ كل شيء أخذا هينا كما تفعل عادة فتيات المدينة

المنشغلات على الدوام بالعيش ليومهن الحاضر ، فإن انفصالهما سيحدث إن عاجلا أو آجلا ، وإذا كان ولا بد ، فمن الأفضل أن يحدث ذلك قبل أن يكون لديهما أطفال .

ولكن من جهة أخرى كان مجرد تفكيره في الانفصال عنها يثير فيه ثورة داخلية ، لم يستطع أبدا أن يتصور وردية خارج دائرة وجوده ... متزوجة رجلا آخر ... وغائبة عنه الى الأبد . «الحقيقة هذا هو الزواج على الطريقة الغربية ، حيث لا تدخل هذه الاعتبارات في شؤون البيوت التقليدية ، فالطلاق مسألة في غاية البساطة ، والمشاعر لا تحتل فيها أية مكانة » .

معجزة .. الرأس ارتفع ، وظهر الوجه المشرق المحاط بخصلات الشعر الخفيف والعيون السوداء العميقة الجميلة .

ـ سامحني يا مجيد ، أنت تعرف كل الثقة التي أضعها فيك ، ولكن أخشى أن لا تضطر إلى المرور بهذه الإهانة ، لا لأنني أطلب منك التخلي عن مهمتك ، ولكن لأنك أنت نفسك كنت قد صرحت لي عدة مرات بأن الصعوبات عديدة ، ويستحيل التغلب عليها من طرف رجل واحد . والحقيقة أنك وحيد ، فالوناس وهو حليفك الوحيد يعتمد عليك أكثر مما تستطيع أنت أن تعتمد عليه .

ـ هذه حجة إضافية أخرى ، ردمجيد متنهدا ، فلو أعلنت انسحابي ، فلن يكون هناك أي أمل ، وسترجع المزرعة سريعا إلى حالتها الأولى .

ـ كثيرون ،هم أولئك الذين لا ينتظرون سوى ذلك، تصور ، لقد جئت ذات يوم وفي رأسك فكرة تغيير حالة ، لم يستطع أحد قبلك تغييرها ، فلم تفعل شيبا سوى أن جعلتها تضطرب أكثر، وألبت عليك أولئك الذين تريد مساعدتهم ، تماما مثل أولئك الذين أنت في أمس الحاجة الى مساعدتهم ، لقد قضيت على قناعة هؤلاء بتقديمك الآمال المزيفة لهم ، كما أقلقت طمأنينة الآخرين .

أتـريـد أن أصارحك ؟ أنت دخيل عليهم ، وأبي نفسه الذي يعرف الرجال ويعرف خدمة الأرض يرى أنك تقوم بمشروعات عديدة لينجح منها واحد فقط .

ـ إنني أعرف كل هذا ، قالها مجيد وهو يحول نظره بحزم عن حدقتي المرأة الشابة الفاتنتين ، ثم أضاف : ولن يمنعني أي شيء عن مواصلة عملي ، وللجاحدين أن يرشقوني بالحجارة ، ولكن لن يمنعني ضميري على الأقل من النوم مرتاحا . ثم غير من لهجته :

ـ هل تتذكرين يا وردية ذلك اليوم الذي سألتك هل تقبلين مشاركتي حياتي ، وفي أي مكان كان ؟

وخفضت رأسها من جديد دون أن تنبس بكلمة ، ثم رفعته نحوه ، والتقت نظرتها لمدة قصيرة بنظرة زوجها ، فقال مجيد في نفسه «إن الخلاف هذه المرة سوف لن يكون إلا وقتيا» ووردية في إمكانها أن لا تجيب ، مذركا تمام الإدراك بأنها تتذكر

هي أيضا في هذه اللحظة الكلمات التي كانت قد نطقت بها ، وقد احمر وجهها من الخجل ولكنها كانت واثقة من نفسها ، وتذكر أيضا الرقة والصدق اللذين طبعا كلماتها وهي تتلفظ بها .

وتراءى له مرة أخرى وجه الفتاة التي كانتها ، مشعا بالسعادة ، وقد قرأ في بسمتها كل الحب الذي تحمله له . قالت له حينذاك .

«لن أكون فقط زوجتك ، ولكن رفيقتك الوفية أيا كان المكان الذي سنعيش فيه ، ما أهمية أن يكون في قلب الصحراء أو في المدينة الكبرى إذا كنت بجانبي» .

ورغب عندئذ أن يقبلها ، ولكنه قنع بأن يضم يدها في يديه المرتعشتين وقد تأثر إلى درجة أنه لم يجد ما يقوله .

كان متأكدا أنه سمع منها حينذاك عهدا ، وأنه وعاه ، وكان تعقل الرشد في صوتها يكبح من جماح المراهقة فيه .

كان مجيد في هذه اللحظة لا يرى إلا جانبا من وجه زوجته - التي يحب وجهها وهو على هذه الصورة أكثر من حبه له في صورته العادية ، حيث يصبح الذقن حادا ، والشفتان مفتوحتين قليلا ، في احتجاج يمازجه الغضب الكاذب أو الخجل ، ولكن في صمت ، وقد اختفت الجبهة تحت خصلات الشعر الذي تدلت أطرافه فوق الحاجبين ، غير أنه بدا لمجيد أن وردية لن تقف عند حدود إظهار الغضب فقط ، لقد أحس باقتراب أزمة لا يعرف نتائجها ، وبالرغم من جهوده ، فإنه لم يستطع أن يجد الكلمات المناسبة التي تمنعها أو تحد منها على الأقل ، أحس أن زوجته

على وشك البكاء مثل طفل منعوه من مد يده إلى حلويات يحبها وطال اشتياقه لها .

كانت الكلمات التي في حوزته لاتمت بصلة إلى اللغة التي تفهمها ، فكانت التنازلات وحدها هي التي يمكن أن تعيد الصفاء لنفس المرأة الشابة ، ولكن مجيد كان عاجزا تماما عن النطق بالعبارة المرجوة «نعم ، سنذهب لنقيم في المدينة» .

كانت زوجته بالقرب منه جالسة على كنبة مرتجة ، أنقذت من بين الأثاث القديم الذي ترك في حالة سيئة من طرف أولئك الذين سلبوا «الفيلا» قبل سنوات خلت . وكان كل منهما قبل نصف ساعة مقبلا على الآخر ، وكانت وردية قد أعدت نفسها في دلال ، لخلوتهم المعتادة بعد العمل ، وتستعجل وقتها بفارغ الصبر ، أما الآن فإنه حتى وإن كان جسداهما لا يبعدان عن بعضهما الا ببعض سنتمترات ، فإن هناك ما يشبه حاجزا يقوم بينهما ، وزالت كل رغبة جسدية عند هذا الطرف أو ذاك ..

كان مجيد قد سحب يده هنيهة ، ليدعم بصفة آلية حججه بمثل تلك الحركات التي كان يستعملها لإقناع محاوريه العنيدين خلال أحاديثه مع العمال ، وكانت يده تداعب عنق زوجته عند منبت الشعر ، فقد كانت شديدة الحساسية في هذا المكان خاصة ، وعندما صعدت أصابعه المتباعدة في بطء داخل الشعر الحريري ، صدرت من وردية أنة اشتهاء تطلب العناق ، وبسرعة مد مجيد ساعده الأيمن وضم كتف زوجته ، فنمت عنها حركة

صد ، وفي الوقت الذي لامست شفتاه أطراف شفتيها ، ازورت عنه في نفور واضح ، وهبت واقفة بسرعة .

بدت وهي واقفة أمامه طويلة القامة جدا ، وهي في فستان البيت الأزرق الذي كان ينزل حتى الكعبين ، وكان شعرها المنحل العقد ينسدل على كتفيها بلا نظام ، وكانت حالتها ككل تعبر عن ثورة تحاول أن تسيطر عليها بصعوبة .

لم يعد صوتها الآن يحمل تلك اللهجة العدوانية التي ما كان في وسع مجيد أن يحتملها ، كان سيغادر المنزل في هذه الحالة لكي لا يعود إليه إلا في الليل المتأخر . لا ، لقد كان في صوتها توسل شديد .

ـ اسمعني يا مجيد ، قالت له وهي مشرفة عليه ، ولكنها فضلت أن تركز عينيها في نقطة على مسند الكنبة ، إلى جانب رجلها الذي لم يعرف أي موقف يتخذ : اسمعني جيدا ، أنا أعرف أن كل الفلاحين هنا يكرهونك ، هؤلاء الذين تركتهم يعملون في المزرعة وأولئك الذين عينتهم عند أصدقائك مبعدا إياهم أكثر عن مساكنهم ، وأخيرا أولئك الذين منعتهم من رعي ما شيتهم في أرض المزرعة ، فإذا كنت تعتقد أنك ستغير شيئا فيهم فأنت مخطيء ، وإلا فإنه يلزمك أن تستنفذ لدى كل واحد منهم على حدة ، ليس فقط البراهين السياسية التي لا يفهمونها ، ولكن الوعود المحسوسة جدا ، وفي ظرف قصير ، وفي هذه الحالة كما في الحالة الأخرى ، فإنهم لن يغتروا بكلامك . أما بخصوص

رؤسائك ، فأنت تطلب منهم إصلاحا ما زالت نفوسهم لم تتهيأ له بعد ، ولن يستطيعوا القبول بتحمل مسؤوليته في القريب ، وربما تتطلب موافقتهم مدة طويلة ...

ـ في هذه الحالة سأتحمل أنا شخصيا هذه المسؤولية ، ولن يهمني إذا كان ولا بد من تحمل العواقب أن أعتبر مجنونا أو أن أساق الى السجن .

فواصلت وردية كلامها دون أن تعير اهتماما لمقاطعة زوجها :

ـ ... ولن أستطيع الصبر طوال هذا الوقت . لقد مر على إقامتنا هنا أكثر من ستة شهور وانت بالذات توشك أن تتمم سنة ، إني أشعر بأنني سأصير مجنونة ذات يوم وأنا في انتظارك في المنزل من الصباح إلى المساء . متسائلة حينما تتأخر ، فيما إذا كان هناك أحد قد تعب من مطالبك فانهال عليك بالضرب أثناء اجتماع من اجتماعاتك ، انني أشعر بأني أفنى لعدم قدرتي حتى على مجرد إخراج أنفي خارج البيت،أو على الأقل إلقاء نظرة من النافذة خشية أن يفاجئني بعض الرجال ، عليك أن تفهم بأنني لا أبحث عن التخلي عنك ، ولكن حتى وان كانت امرأة ريفية مثلي ، فإنها لا تستطيع أن تحتمل إلى مالا نهاية مثل هذه الوضعية ، ولو كانت هذه وضعية واحدة من بنات المدينة ، لكانت قد رجعت إلى أهلها منذ مدة طويلة ... صحيح أن والدي ليس هما أبي وأمي الحقيقيين ....

وانقطعت وردية عن الحديث ، واختنق المقطع الأخير في حلقها بإجهاشة لا يمكن حبسها ، وانهمرت الدموع على خديها

وتناولت طرف ثوبها ونشفت به إحدى عينيها ، ثم العين الأخرى ، ومسحت به وجهها ثم تركته يسقط .

وحينما فتحت عينيها من جديد رأت وجه مجيد قريبا من وجهها ، قريبا تماما ، كان يعكس ألما حادا ، وقرأت العتاب في حدقتيه المركزتين عليها ، وكانت حالها تثير الشفقة أمام قسمات مجيد العابسة ، وأخاديد وجهه العميقة التي أضفت عليه ملامح الشيخوخة مبكرا . وأدارت وجهها قبل أن تنزل يد زوجها على خدها ، بينما بقي هذا الأخير واقفا ويده معلقة في الهواء .

وتمتم بعد لحظة صمت .

ـ هل تريدين أن آخذك عند والديك لبضعة أيام ؟

واكتفت بهز كتفيها كرد على سؤاله ، ثم استدارت على عقبيها واندفعت إلى المطبخ تاركة زوجها هناك ، بعد أن أبعدت في عنف ستارة النيلون التي كانت موضوعة على الباب .

ـ ستنخرط في البكاء ، فكر مجيد ، ولكنه فضل أن لا يتبعها إلى خلوتها ، كان مقتنعا أنها ستعود إلى صفائها النفسي ، وبأنهما سيصطلحان في نفس ذلك المساء ، ولكنها لن تشاركه آراءه مدة أطول من ذلك ، إذ أن وردية ستعود إلى إثارة الموضوع وفي فترات متقاربة أكثر فأكثر ، ولا بد له أن يتخذ قرارا ، سواء اليوم أو غدا .

وفضل أن يصرف تفكيره عنها ، واتجه بخطوات وئيدة نحو النافذة التي كانت تطل على الحقول ، وراح يتأمل الكروم

وقد لفها الليل ، وكانت أفكاره قد سرحت بعيدا . وبعد هنيهة أخرجته من تأملاته قائلة :

ـ هل تأتي لتأكل هنا أو أحمل لك طعامك إلى الصالون ؟

فأجابها وقد سري عنه :

ـ سألتحق بك هناك .

في الغد طلبت وردية الإذن بالذهاب لزيارة والديها بالتبني ، فقد علمت أن أمها مريضة ، فأوصلها مجيد دون أن يقول شيئا ، سوى أنه لاحظ لها أنها أخذت معها أشياء كثيرة ، ولكن دون إلحاح منه . لأنه فهم القصد ، فالفراق أصبح محتما ، وسيستمر طيلة ما يلزمه من الوقت . وفكر في نفسه .

ـ ستعود في القريب إلى حالتها الطبيعية ، وسيسمح لها ذلك على الأقل بالتفكير مليا .

الفصـــل الثــاني عشـــر

كان صالح أضعف بنية من صادق ، ولكنه كان لا يخشاه بقدر ما كان يعلم أنه لا يجروء على رفع يده عليه . وكان الضعفاء عادة أو أولئك الذين يكرهون العنف هم ضحايا صادق المفضلين ، أما هو فلم يكن ضعيفا ولا مغفلا ، ولكنه فقط كان متحفظا ورب عائلة مثالي يخشى أن يضيع مصدر رزقه الوحيد لإعالة مخلوقين ينتظران كل شيء من عمله ذاك ، في حين كان ضياع مصدر الرزق هو ما سيحصل فيما إذا استمرت المزرعة في التدهور بسبب هؤلاء الذين لا يعيشون إلا ليومهم . .

لقد كان صالح يخشى أن يجد نفسه بطالا من جديد . صاح في محدثه وهو ينظر إليه في تحد :

ـ هذا سخف ، لقد نسيت بالمناسبة أن هذا الرجل ليس إلا مجرد أجير مثلك ومثلنا جميعا ، وليس له شيء مما للمالك المستغل لعماله ...

ـ أجير ؟ يالك من ساذج ، من الواضح جدا أنك لم تنظر إلى يديه أبدا ، إلا إذا كنت تتجاهل عن قصد كل الفرق الموجود بينه وبيننا . حاول أن تسلي نفسك بمقارنة راحتيه بكفي أو كفيك التي خدشتها مقابض الفؤوس ، هاك يدي . تلمس هذه الشثاليل القاسية كالحجارة ، هذه نعم ، هي أيدي العامل الأجير ، أما يداه هو ، فإنها أشد نقاء ، وأشد نعومة وطراوة من يدي فتاة في مقتبل العمر، إنه لم يلمس الرفش أو الفأس أبدا ، طبعا لأنه ـ كما يفترض ـ واحد من المثقفين . ولكن هل تريد الرأي الصريح ، إن المثقفين مثلهم مثل الملاك ، يعيشون على ظهورنا ، وعلى حساب عرقنا . .

ـ إن يديه أخشن من يديك ، وقد خشنتها أدوات أصعب في استعمالها من أدواتك وأخطر ، وأنه بفضل أناس مثله قد استطعت أن تنهي سن المراهقة في أمان .

وانحنى صالح فأمسك طرف الكيس الذي كان منطرحا عند قدميه ، ثم التفت نحو رفيقه الذي بقي واقفا معطل اليدين كأنه كان مشدوها .

ـ هلا ساعدتني بالأحرى على رفع هذا الكيس ؟ أما سوى هذا ، فليس هناك أية فائدة في الاستماع إليك يا صادق ومن جهة أخرى فإن أناسا مثلك لا يسمح لهم ضمن التقليد الطيب لنظام (الجماعة) بالتدخل في الحديث . وإنه حينما تكون قد أصغيت إليهم بقدر كاف ، فإنه يكون في إمكانك بعد ذلك أن تصدر حكمك بقدر أقل من التعصب .

وصدرت عن صادق همهمة وهو ينحني بدوره ، ثم عاد فوقف فجأة وكأنه أسعف بفكرة جديدة .

ـ يا صالح ... تقول إن مجيد يعمل معنا ، فإذا كان هذا صحيحا ، فاذهب إليه إذن ، واطلب منه الدخول إلى الحقل ، والجري وراء المكينة ، والعرق هكذا انظر ...

ومسح جبينه بسبابته من طرفه إلى الطرف الآخر ، فتلألأت حبات من العرق عند طرف جبينه في تسلسل منتظم .

ـ ... إنه عوضا عن هذا ، يبقي نفسه بكل عناية بعيدا عن الضجيج ، بعيدا عن الشمس ، بعيدا عن الغبار الذي يسبب لنا الحكة في الظهر .

واستقام صالح بدوره في تأن ، وكأنه انسحق تحت وطأة تعب غير محتمل ، كانت قسماته قسمات رجل ناضج لم تعامله الحياة برفق ، وكانت التجاعيد التي حفرت وجهه تشهد على ماض طويل من الكد والعذاب .

من تحت مظلة القش أطلت خصلة من الشعر علب فيها اللون الرمادي بوضوح على اللون البني ، والتصقت في الطرف الأعلى من جبهته . وقد بللها عرق متسخ . كان تعنت صادق قد أخرجه عن طوره ولكنه لم يشأ أن يرد لجاجته دون أن يفهمه .

ـ إن المستقبل سيتكفل بتكذيب افتراءاتك ، وستعرف أن مجيد ليس رجلا متعطشا للربح ، لأنه سيربح أكثر لو عمل في مكان آخر .

إنه فعلا ينظر إلى ما فيه مصلحتنا جميعا أكثر بكثير مما ينظر إلى مصلحته الخاصة ، إنني في هذا أدرى بالرجال ، تيقن من ذلك ، إلا أن فائدته ليست وسط الحقل ، وعليك أن تفهم هذا ، أنت يامن يبدو أنك ضيعت الصواب ، ومن جهة أخرى فانني أنا الذي كنت قد أحلت بينه وبين اللحاق بنا ، وإن أناسا مثله هم الذين يعوزوننا ، وكان أحرى بنا أن نشكر الصدفة التي بعثت به إلينا خلفا لكل أولئك العاجزين الذين خربوا المزرعة . والآن ساعدني ... أو بالأحرى ابتعد عني «يرحم والديك» . وفكر كيفما تشاء ، الله يهديك ، أما بخصوص مشاركة الآخرين لك في آرائك البائسة ، فاعلم أنك لن تفلح في ذلك وأن وجود الذين توجبت مغادرتهم المزرعة بالأمس بسبب العمل ما بيننا اليوم ، ليكفي للدلالة على ما تم من الإنجازات .

بعد ان انتهى من حديثه ، نزع يده من الكيس وابتعد عدة خطوات وكأنه كان يخشى أن يجد الآخر جوابا يرد به عليه لمواصلة الخصومة ، ثم راح ينادي :

ـ عمار ، عمار ، تعال ساعدني ، الصادق تعبان .

ومن الطرف الآخر للحقل أتى المدعو عمار مسرعا وكان شابا ممتلئا حيوية وقوة ، وتمتم الفلاح العجوز وكأنه يحدث نفسه .

ـ لو زاد قليلا لحطمت له وجهه . ولم يفهم عمار ما يقصده . وتشاغل الصادق بعض الوقت بالنظر اليهما ، وصدرت عنه

إشارة تذمر ، ثم بصق على الأرض ومضى متجها نحو جماعة أخرى ، وفجأة نكص على عقبيه ورجع إلى صالح فهمس له في أذنه بقوله :

ـ لأنه ما زال ينوي إرجاع ابنتك فأنت تدافع عنه بمثل هذه الضراوة ؟

وبالصدفة المحضة وقعت يد صالح على ذراع معول مشروخ كان ملقى هناك ، فأصابت الضربة الأولى صادق على عرض الظهر ، أعقبها دوي مكتوم أشد من ذلك الذي تحدثه عصا غليظة فوق بردعة حمار.

وبالرغم من جنون الغضب الذي بعث فيه قوة الشباب من جديد ، وجعل الدم يتدفق بقوة في عضلاته المتيبسة فإن صالح لم يستطع أن يكون أسرع في جريه من ضحيته ، وتحتم عليه أن يتخلى عن رغبته في إشفاء غليله بضرب أكثر على ظهر صادق . وكان هذا الأخير يصيح وهو منطلق في جري مجنون عبر الحقل ـ وقد تخلص من حذائه ـ ليغيب عن النظر بعد ذلك :

ـ اتق الله يا صالح ، إنني أمزح معك ، وحق سيدي اسماعيل ، إنني أمزح معك فقط .

وتوقف صالح مبهور الأنفاس ، وكان الآخر قد ابتعد وغطى على صوته الضجيج المحيط بالحقل ، وعلق أحد الأشخاص ، وهو الذي رأى من بعيد المشهد الأخير .

ـ ما رأيت الطاعون أبدا يصيب الرجال هكذا ... وكان ذلك هو التعليق الوحيد . فقد مر المشهد بلا ضجيج ، ولم يسمع مجيد ـ كبقية الفلاحين ـ أي حديث عن الخصومة ، وعمار بالذات ، وهو الشاهد الوحيد ، عاد إلى عمله مع صالح دون أن يتمكن من انتزاع أي توضيح من هذا الأخير ، وإن كان قد استنتج بأن سبب الخصومة الحقيقي ، ربما يكون ذلك الرفض الذي أبداه صالح لوالدي صادق اللذين جاءا قبل بضعة أشهر يطلبان ابنته للزواج ، وقد علل الرجل العجوز رفضه بأن للصادق ثماني وثلاثين سنة من العمر ، وسبق له أن تزوج مرتين وما زال يحتفظ بولدين من زوجته الأولى ، وزوجته الثانية مطلقة ...

* * *

يؤكد الناس في بعض المناطق من بلادنا بأن للصيف فترتين استثنائيتين للقيظ ، تماما مثل ما هو الحال في الشتاء ، حيث يشتد البرد بصفة طبيعية خلال وقت محدد تماما .

كانت حرارة الشمس السائدة في ذلك اليوم تجعل الشخص يعتقد أن الحرارة قد بلغت درجتها القصوى في الفترة الأولى من القيظ .

كان مجيد في مكان ظليل ، وكان يحس بشيء من الحرارة ، وكان جسمه بأكمله يسبح في رطوبة دافئة ومضجرة . قال محدثا نفسه .

ـ هذا أفضل ، فلن تكون لها أية عواقب سوى أنها ستخلصني من هذا الشحم الزائد ، وهو آخر أثر لحياتي البيروقراطية .

فعلا لقد كان الأمر يختلف اختلافا كبيرا ، فعمل المكتب يلين أشد الرجال خشونة ، وليس النظام البيروقراطي وحده .

إن المعاناة الجسمية التي كان مجيد يحس بها في هذه الآونة قد عوضتها بما يزيد عن اللزوم سعادته المعنوية التي أثارها في نفسه ذلك المشهد الذي يجري أمام عينيه .

كان واقفا عند حدود حقل القمح في الحاشية الضيقة السوداء التي رسمها ظل الحائط الجانبي للبيدر ، يتأمل الامتداد الشاسع الغارق بالضوء المتأجج ، حيث يعمل الحاصدون في نشاط .

كان يضع على رأسه مظلة واسعة من القش ، متعددة الألوان ، من ذلك النوع الذي يتفرد الفلاحون بلباسه في الصيف ليقي رؤوسهم من لذعات الشمس . وبالمناسبة فإنه اذا كانت هذه الوسيلة لم تجده نفعا ، فان الاستعانة بمروحة في هذه الحال يمكن أن يكون مناسبا ، ولكنه زيادة على كون المظلة يمكن أن تقوم تماما بمهمة المروحة ، فانها لاتستطيع إلا أن تحرك هواء شديد السخونة يبعث على الضجر.

كان مجيد قبل دقائق محتقن الوجه ، على وشك السقوط تحت تأثير دوخة شديدة ، فاقتنع بضرورة مغادرة مكان العمل. صرفه في هدوء ولكن في تصميم أكبر العمال سنا . وكان هذا الاخير الذي بدا عليه أنه غير شاعر بوطأة الشمس ، قد خص رئيسه بنظرة فيها شيء من السخرية ، وشيء من الإشفاق . قال له بعد أن زالت عنه الأزمة التي لم تدم إلا لحظات .

ـ ان عملك ليس هنا ، اترك الحصاد لمن يحسنون القيام به ، نحن متعودون عليه ، نحن الذين لم نشتغل في مكتب أبدا .

وهكذا بدأ وقد وقف بعيدا عن « مسرح العمليات » وكأنه يراقب سير العمل ، ولكن في الحقيقة كان نظره قد مضى به ليتيه في الأفق خلف البحر المتموج من السنابل المحملة ، الذي كان يمتد على عدة مآت من الامتار ، وكأنه كان يستطلع المستقبل الذي بدا له بعد عملية الحصاد هذه ، يبشر بفضلها بآمال عريضة .

لم تكن هناك أدنى نسمة تتحرك ، نفس الحرارة المحرقة التي أنضجت السنابل تسود فترة الحصاد . أما في الحقل فقد كان الضجيج يملأ المكان ، ضجيج متنوع صادر عن دواليب مكينتي الحصاد (المكريتين) حيث كانت إِحْدَاهُمَا تلقي بأغمار السنابل في صفوف متراصة ، بينما تتكفل الثانية ببقية العمل ، وكانت هذه الأخيرة تنفخ في الهواء بأمواج من الغبار الكثيف ، فتصنع أشعة الشمس عبره ما لا يحصى من نقاط الضوء المتلألئة . كانت تخلف وراءها ، وفي وقت منتظم ، أكياسا مملوءة حبا . وحول الحاصدة التي كان يسحبها جرار أحمر اللون فاقعه ، كان هناك عدد من العمال منصرفين إليها ، يتبعونها في تقدمها البطيء ، بينما انصرف عدد آخر منهم ـ وقد تسلحوا بالمذاري ـ الى تزويد المكينة الثانية بالسنابل .

بدا واضحا أن عملية الحصاد لم تؤثر على نشاط العمال بتاتا ، فقد قطعوا في وقت مبكر جدا ، وبمحض إرادتهم ، راحة القيلولة .

وكثيرا ما كان يرى أحدهم وهو ينفصل عن مجموعته ، فيجري نحو خزان الماء الذي كان موضوعا في ظل شجرة توت ، قرب حقل الكروم ، فيبلل منديلا عريضا ، ويسرّبه بعد ذلك تحت مظلة القش ، ويرجع إلى جماعته والماء يتقاطر على وجهه .

كانوا يتبادلون النداءات في ابتهاج ويصدرون الأوامر لبعضهم البعض ، أو يتمازحون فترن أصواتهم صافية في الجو الملتهب .

وانطلقت المكينة تحصد صفا جديد بعد أن استدارت دورة نشيطة بالقرب من المكان الذي كان مجيد يقف فيه فبدا عليه وكأنه تلقى دفعة قوية من الهواء الساخن فراح يبتعد عن المكان قليلا قليلا الى ان صار مجرد كتلة غير مميزة المعالم في أقصى الحقل.

كانت أغمار السنابل المتماسكة تنفلت من وراء الحاصدة ، فترسم خط سيرها ، وتنضاف إلى تلك الأغمار التي كانت متناثرة عبر المساحة المحصودة والتي سيتم نقلها بعد ذلك بالعربات الى الكدس العظيم الذي كان قائما على مقربة من مكينة الدرس .

لو اقترب صالح الذي أحس بالارتياح في هذه الاونة بابتعاده عن صادق الذي كان يشعر بالقرف لوجوده ، لواقترب من

مجيد الذي كان يقف منعزلا ، ويتابع العمل كمشاهد أخرس ، فانه ما كان ليفوته ملاحظة علامات الرضا الواضح على ملامحه وما كان ليستنتج نفس النتائج التي استنتجها صادق .

لو اقترب منه هل سيقول له « وردية لا بد أن تعود الى بيتها »..

ولكن هذا القول لم يكن مناقضا للموقف حين انتزع المذراة منذ قليل من يد مجيد الذي كان قد تناولها للمشاركة في العمل .

تمتم وهو يتابع مجيد بنظرته وهو يبتعد عن الحاصدة على مضض « ها هو في نهاية الأمر الرجل النزيه والقدوة الحسنة الذي نحن في حاجة إليه » .

كان كيان مجيد كله وهو يتابع عمال الآلة في ذهابهم وايابهم ـ وقد لاحت إشعاعة الفرح في عينيه ـ كان كيانه كله يصرخ بالمتعة العظيمة التي كان يحس بها ، ومن جهة أخرى ، فإنه كان يكفيه أن يلاحظ الوتيرة التي كانت أكياس القمح الممتلئة تنفلت بها من الآلة التي كانت محاطة بهالة من الغبار ، ليقتنع بأن المحصول سيتجاوز لا محالة التوقعات الأكثر تفاؤلا .

كان ينظر الى ذلك ـ طبعا ـ على أنه ثمرة عمل قام به بكل جدية رجال نشطون عادت إليهم ثقتهم بأنفسهم كما كان يعتبره أيضا تحقيقا ملموسا لجهوده الخاصة ، وهو يشعر لأجل ذلك بفخر مشروع ، إنه تتويج لوقت لا يقدر صرفه في تدبير الأمور ، وفي اجتياز العقبات الصعبة في صبر .

كان مجيد يكتم في نفسه بصعوبة شعورا حادا كان سيدفع به لو أفلت منه الى الرقص وسط أغمار السنابل الذهبية . شعورا لا يشبه بحال شعور المالك المتلهف للربح .

وهتف في دخيلة نفسه :

ـ حمدا لك يارب ، فالعمال سيقبضون رواتبهم بانتظام ، وأكون بذلك قد أديت مهمتي ، فأضاف صوت داخلي آخر ، تداخلت معه صورة وردية « مع الأسف أنها لم تثق بي في الوقت الذي كنت في أمس الحاجة الى ثقتها ... لن تطأ قدماها أرض البيت مرة أخرى ابدا » .

في هذا الوقت كان صالح يلقي بنظرات حذرة نحو صادق الذي كان منهمكا في الحديث مع رفيق تلك اللحظة ، وحدث نفسه قائلا :

« لربما نجح هذا الوغد في نشر دعايته لدى بعض السذج » .

ولكنه كان في قرارة نفسه مطمئنا ، فأغلبية العمال يقفون الآن في صف مجيد، وصادق لم يتمكن أبدا من زعزعة ثقتهم ، خاصة وأن الدليل قد أعطي لهم الآن ، وأن المدير لا يهدف بتاتا الى فائدته الشخصية ، أما المعارضة المريضة التي يمثلها البعض الآخر ، فانها لم تكن موجهة ضد شخصية المدير بقدر ما هي موجهة للنظام الذي يدافع عنه ، وهؤلاء لا يمكن إحباط نشاطهم إلا إذا جاءت الحقائق باستمرار لتكذيب تنبؤاتهم السيئة . ولعل سلوكهم سيتغير بشكل ملموس برؤيتهم للتحسن المطّرد .

فكر صالح مع نفسه « لا بد من اتخاذ كل الاحتياطات اللازمة الآن » ، لقد عقد العزم على الحديث في ذلك المساء مع وردية وسيستدعي مجلس أعيان القرية اذا لزم الأمر ، وهذا في حالة ما إذا رفض مجيد إعادة زوجته . ولكن مجيد لم يكن قد نطق بالطلاق وسيعرف صالح كيف يقدم البراهين التي ستجعل الطرفين يرضخان لها .

خاتمة

بعد حملة الحصاد بوقت قصير ، نظمت الانتخابات، حيث كان من الضروري تجديد مجلس العمال ولجنة التسيير، وقد أسندت لهذين التنظيمين منذ وقت وجيز مسؤوليات أكثر أهمية .

وقد شعر الوناس بالارتياح الشديد لأنه استطاع أن يقنع رفاقه بعدم قدرته على القيام بمسؤولية رئيس اللجنة ، ومن الأمور الغريبة ، أن صادق الذي كان يطمع في الحصول على مقعد في مجلس العمال ، قد أصبح بالصدفة ، عضوا في لجنة التسيير.

بمناسبة إحدى الولائم العامة ، وفي معرض الحديث والمزاح ، روى صالح الفلاح العجوز الحادثة التي كلفت صادق آلاما طيلة أسبوع ، بفعل الخط الأحمر الطويل الذي تركته العصا على ظهره ، والذي بقي أثره لمدة طويلة ، ولكن العامل القديم المتمرد ، كان قد قام بممارسة النقد الذاتي على نفسه بشكل واضح ، وأصبحت سيرته لا غبار عليها ، لا سيما وأن المسؤولية الجديدة قد ساعدته على ذلك .

أكد قائلا ، قبل أن يحمل الى فمه ملعقة مملوءة بالكسكس بأن الذنب يرجع الى الشمس «التي كانت محرقة في ذلك اليوم» . وكان صالح يريد بذلك أن يظهر اقتناعه بأن رفيقه كان يريد أن يمزح معه فقط أو يريد اختبار حلمه .

* * *

ذات يوم ، تسلق مجيد ، الى ان بلغ الصخور الثلاثة المطلة على السهل ، وكان غالبا ما يفعل ذلك عند مغيب الشمس ، راغبا في الاستمتاع في العزلة بلحظة من الراحة .

من هناك ، كان النظر يجول بحرية على امتداد المزرعة. ومن موقعه وهو متكىء بظهره الى إحدى كتل الغرانيت ، شعر مجيد لأول مرة بالرضا لما اكتشفه في المنبسط الذي كان يشرف عليه ، اذ لا شيء مهما قل شأنه كان يشكو حاله في ذلك الكل ، كان كل شبر فيه مستغلا .

كان النهار يوشك أن ينقضي ، وقرص الشمس لم يعد يظهر منه إلا نصفه ، هناك في الأفق على يمين المتفرج ، في سيمفونية من الألوان لا نظير لها ، كم مضى عليه من الوقت منذ أن حل بهذا المكان ؟ لم يكن في مقدور مجيد أن يجيب على ذلك بالضبط ولكنه على الأقل كان لديه إحساس فيما يخصه هو ، بأن الوقت لا يمكن أن يقدر بعد الأيام والشهور أو السنوات ، ولكن بقدر الجهود المبذولة ، وبالتالي بالانجازات ، في حين أنه من حيث الإنجازات فإنها تجاوزت التقديرات الأكثر تفاؤلا ، ولم تقتصر

على إرجاع الأمور الى نصابها فقط ، لأن ما فعله العمال هو تغيير شامل للمزرعة .

لقد صارت المزرعة رقم (5) مزرعة نموذجية ، وأصبح مردود الهكتار فيها من نوع القمح الكندي ـ بكل بساطة ـ شيئا خارقا للعادة ، وكذلك الزراعات المختلفة المزروعة على طول السنة ، فقد عد مردودها أهم ما في تلك المنطقة .

كان للسمعة التي يتمتع بها مجيد لدى مؤسسات الدولة أثرها في تزويد المزرعة بالعتاد والبذور والسماد ، حيث لم تعرف أي اضطراب في المواعيد ، وهو الموضوع الذي يكثر حوله الحديث بعض مسؤولي المزارع . وكذلك الشأن في تسويق المحاصيل .

لقد احترمت بصرامة الى حد الآن مواعيد دفع الديون والمصاريف المستحقة ، وكذلك أجور العمال بصفة عادية .

وفي القريب سترتفع قيمة الأرباح التي ستوزع على العمال ، حتى تدفع بهم الى الاعتقاد أخيرا بأن آمالهم لم تكن عديمة الجدوى ، ولكن الشيء المعتبر أكثر في نظر مجيد هو التغيير الذي نجح في خلقه في العقول ، والثقة بالنفس التي استطاع أن يعيدها الى بعض العمال .. أما أولئك الذين كانوا قبل بضعة شهور خلت يهزون الرؤوس استخفافا حينما يرون رفاقهم يتوجهون بعد العمل الى المحل الصغير الذي كان معلم القرية يأتي اليه ليعطي دروسا في محو الأمية ، فإنهم جاؤوا في الأخير ، الواحد بعد الآخر ليضخموا عدد المواضبين على الحضور .

كانت المزرعة تحيا حقيقة ، وقد انتهى مجيد الى الاعتقاد بأن أكثر العمال عنادا سيقتنع في المستقبل بأن عمل كل فرد منهم سيعود بالفائدة على المجموع بشكل مباشر أو غير مباشر ، أكثر مما يعود عليهم بالفائدة وحدهم .

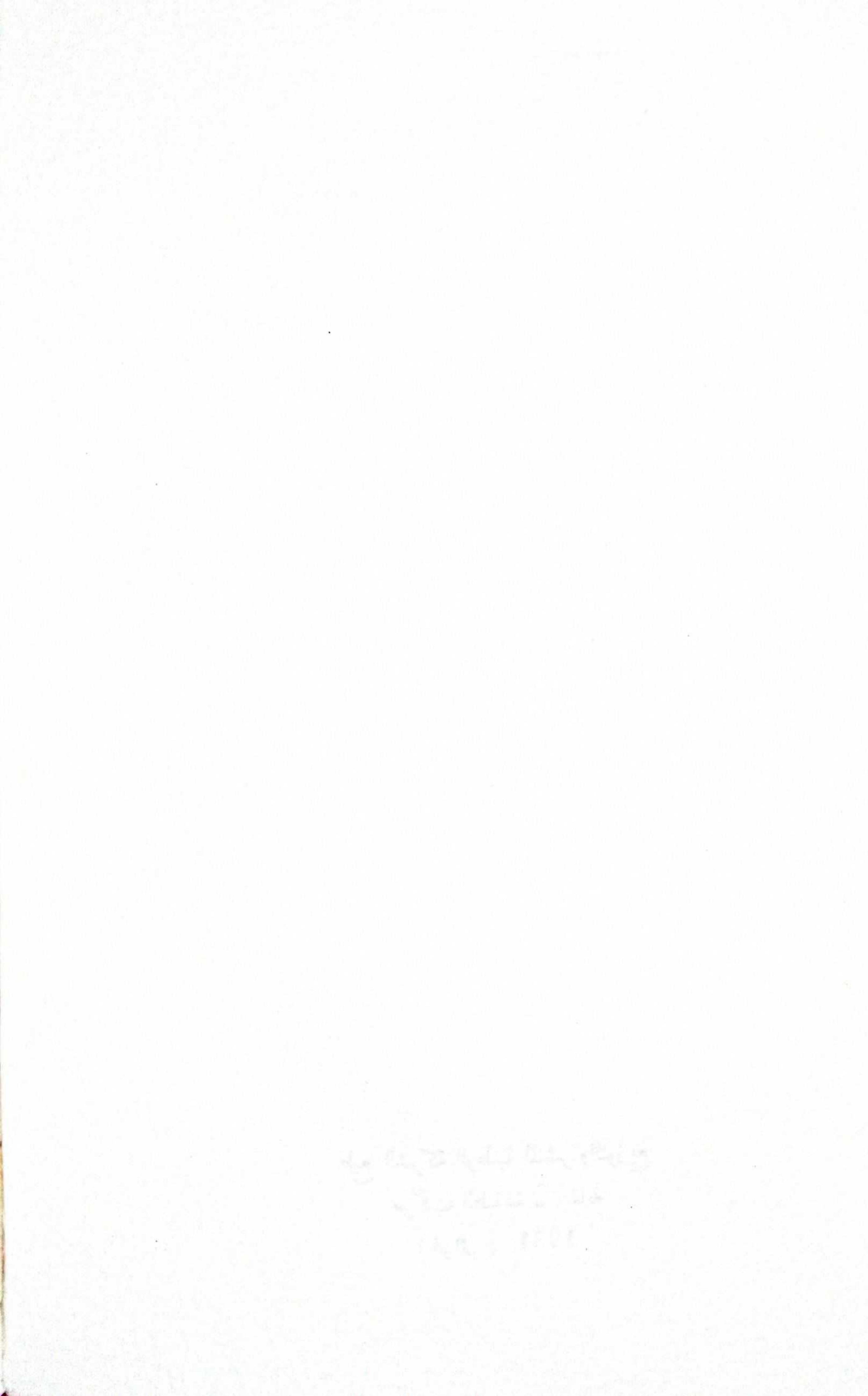
في هذا المساء أباح مجيد لوردية بقوله «لعله حان وقت التفكير الآن في الاقامة بالمدينة » . ولم ترد الزوجة الشابة في الحين ، متظاهرة بالانهماك في الحياكة ، وهي نشاطها الأساسي منذ آن رجعت الى بيت الزوجية ، واعتدلت بجسمها أخيرا ، وكانت قسمات وجهها تعكس فرحة عارمة ، فشلت في إخفائها ، وأجابته في حياء وهي تعض على شفتها السفلى :

« لننتظر قبل كل شيء ازدياد مولودنا الأول » .

انتهى

فهـرس

طبع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
مركب الطباعة ـ رغاية
الجزائر : 1981



Mouloud ACHOUR

LES DERNIERES VENDANGES



السعر في الجزائر : 19,50 د.ج